في أقبية الشياطين

عبد الكافي عرابي النجار

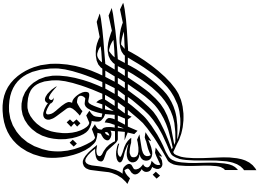
بسم الله الرحمن الرحيم

في أقبية الشّياطين

عبد الكافي عرابي النجار

إهداء

- إلى الذين ما زالوا هناك.
- إلى الذين ما زال الجلاد يقتل إنسانيّتهم في اليوم مرات ومرات.
- إلى الذين يتنفسون وجعاً، ويصرخون دماً، وينزفون أنيناً، ويبكون أملاً.
- إلى كلّ المعتقلين في أقبية وسجون عصابات الطاغية بشار. عجّل الله خلاصكم، وفكّ أسركم، وأطلق سراحكم، وأعادكم إلى بيوتكم وأهليكم وأولادكم سالمين غانمين.
- إلى الآباء والأمهات إلى الأبناء والبنات إلى الأزواج والزوجات إلى الإخوة والأخوات إلى كلّ من له حبيب أو صديق أو قريب في سجون ومعتقلات عصابات الطاغية بشار، إلى الذين يعيشون على أمل اللقاء بأحبابهم في كلّ لحظة وينتظرون بشارة الفرح بالحرية.

- إلى المعتقلة الأولى وأمّ المعتقلين والمأسورين والمغيبين سوريّة الحبيبة على أمل أن تتحرر قريباً من حكم نظام عصابات الأسد وأعوانه.

إلى كلّ هؤلاء أهدي هذا الجهد المتواضع، رجاء دعوة صالحة في ظهر الغيب.

عبدالكافي عرابي النجار

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه:

مقدّمة وتنويه[1]

ما كتبته هو معاناة شخصيّة مؤلمة، وذكريات حفرت آثارها في ذرّات كياني، صحيح أنّني واحد من مئات الألوف الذين مرّوا بتلك التجربة المريرة في ظلّ حكم نظام البعث وآل الأسد، لكنّني اختلف عن أكثرهم، بأنّني ملكت الإرادة والعزيمة على أن أكتب ما مررت به من أحداث، وما رأيته من إجرام، وقد حباني الله تعالى قدرة على الكتابة، وإن كنت في الحقيقة أَعدُّ تجربتي – مع مرارتها وقسوتها– لا تساوي عُشر مِعشار ما مرّت به تلك الألوف المؤلّفة من السوريّين وغيرهم في معتقلات وزنازين نظام عصابة الأسد، بل أنا على يقين أنّ تجربتي هي الأقلّ معاناة وقهراً وآلاماً، لظروف عديدة:

أوّلها: هيأ الله لي من الأصدقاء من سعى عند بعض الجهات

---

[1] ـ أُلّف هذا الكتاب عام ٢٠١٥ قبل سقوط الطاغية الطائفي المجرم بشار الأسد وانتصار الثورة السوريّة المباركة في ٢٠٢٤/١٢/٨مـ

الأمنيّة المجرمة، من خلال دفَع مبلغ ماليّ كبير كان كفيلاً بإرسال توصية خاصة بي، ممّا أبعد عنّي كثيراً من أساليب التعامل الوحشيّ الذي رأيته بعيني واقعاً في التعامل مع أغلب المعتقلين.

ثانيها: قِصر مدّة اعتقالي، فهي لم تتجاوز ثلاثة وستّين يوماً، قضيت نصفها في فرع الأمن السياسيّ، والنصف الثاني في الطريق إلى سجن (عدرا) المدنيّ، الذي يُعدّ منتجعاً بالنسبة لما يراه المعتقلون في أقبية فروع الأمن والسجون العسكريّة.

ثالثها: مضيّ حوالي أربع سنيين على بداية الثورة، حيث استطاع نظام عصابات الأسد أن يمسك زمام الأمور بعد الاستعانة بحزب الله وإيران وروسيا، ممّا خفف نسبيّاً من السلوك الإجرامي الذي انتهجه في السنوات الأولى من ثورة الشعب السوري، وكان قد سلك في هذه السنوات منهجاً إجراميّاً في التنكيل بالسوريين لم يمرّ على الحياة البشريّة في وحشيّته وإجرامه، فندر معه من خرج من المعتقلات حيّاً.

ربّما تكون هذه الأسباب كلّها عاملاً مؤثّراً في تخفيف معاناتي

عن مئات الألوف من المعتقلين، وعلى كلّ الحالات فإنّ الله تعالى قدّر ولطف.

وثيقة وشهادة وتنبيه

ما كتبته سرد تسجيليّ من الذاكرة، ووثيقة وشهادة لله، ثمّ للتاريخ عن بعض ما يحصل في فروع أمن النظام الأسديّ ومعتقلاته من وحشيّة وإجرام، ولست أديباً ولا أدّعي أنّ ما كتبته يدخل فيما يطلق عليه (أدب السجون)، فأنا أسرد معاناتي وما مرّ بي وما رأيته من منطلق التسجيل والتوثيق فيما يشبه سيرة شخصيّة، ولا أسعى إلى كتابة عمل روائيّ، إنّما أستعيد من ذاكرتي الشخصيّة ما خبّأته من تفاصيل خلال هذه التجربة المريرة، وقد أسمح لنفسي بعض المرّات أن تتدخّل بتفسير أو تحليل من غير إضافة أو زيادة.

مخاطر أمنيّة

لست ملزماً بذكر كلّ الأحداث بتفاصيلها الصغيرة، فقد أغفلت بعضها عن قصد- ربّما يأتي اليوم الذي سأذكرها كاملة- لما يمكن أن يكون في ذكرها من إشارات، تدلّ على بعض الشخصيّات التي ربّما يلحقها خطر مباشر من نظام عصابات الأسد، لكونها ما زالت في المناطق التي تخضع له، بل

إنّ بعض تلك الشخصيّات لا يزال أصحابها على رأس أعمالهم في مؤسّسات هذا النظام الفاجر، وأيّة إشارة إليهم قد تؤدي إلى اعتقالهم والتنكيل بهم وبأسرهم على أدنى الافتراضات.

تنبيه

عندما أكرر هنا كلمة (نصيريّ أو النصيريّة) لا يعني ذلك أنّ كلّ نصيري هو عدو لي، بل ما أحد من السوريين يعادي أحداً من الطائفة النصيريّة لأنّه نصيري، وقد كانوا يعيشون بيننا من قبل أن يستولي حافظ الأسد على السلطة، وما كان أحد يؤذيهم، ولكن بعد أن ظهرت السياسة الطائفيّة التي انتهجها نظام الطاغية الأسد الأبّ ومن بعده ولده علانية، تولّدت تجاه هؤلاء حساسيّة خاصّة، وخصوصاً بعد تسلّطهم على رقاب أهل السنّة الذين يمثّلون الأكثريّة العظمى من السوريين، حيث استأثر هؤلاء النصيريون بكلّ مراكز القوى الفاعلة والمؤثرة في سوريّة، بدءاً من الجيش والأمن، وانتهاء بالمدارس والجامعات، مروراً بمؤسسات الدولة كلّها. والسوريون يعادون من ينكّل بهم ويستبيح حرماتهم، ويسفك دماءهم، سواء كان نصيّرياً أو غير

نصيري، وإن كانت الأكثريّة الكاثرة من هؤلاء من النصيريّة؛ لأنّ النظام استطاع بخبثه أن يقنعهم أن مصيرهم مرتبط ببقائه.

في أقبية الشياطين

بـدأت الحكايـة في يـوم السـبت الواقـع: ٢٠١٤/١١/٢٩ ميلاديّـة، في ذلـك اليـوم نزلـت عنـد رغبـة صـديقي، الـذي سيرافقني في السفر، بأن نسافر بسيارات النقل العامّة، وكنت منذ زمن لا أسافر إلا بسيّارتي.

كان من يسافر في تلك الأيام؛ بل من يخرج من حيّه له حكم المفقود، وألسنة أفراد أسرته تلهج خلفه بالدعاء والتضرّع إلى الله تعالى أن يعيده سالماً، وخصوصاً أنّ النّاس يتناقلون عشرات الحكايات يوميّاً عن أناس خرجوا من بيوتهم لتأمين حاجاتهم الأساسيّة، ولم يعودوا إليها بعد ذلك، ولا يعرف أهلوهم أين هم إلى الآن، وكانت آخر أخبارهم أنّهم مرّوا على الحاجز الفلاني، ثمّ اختفوا بعد ذلك.

عندما وصلنا محطّة الحافلات في أوّل القابون في دمشق شعرتُ بأنّنا قد انتقلنا إلى عالم آخر، فنادراً ما تتجاوز السيّارات دوّار العباسيّين، سوى سيّارات الخدمة العامّة التي توصل المسافرين إلى محطّة الانطلاق إلى المحافظات الأخرى، والتي ينبغي عليها

أن تحصل على أذونات أمنيّة خاصّة بذلك، وعند وجود أيّة بوادر تأزّم تُمنع هذه السيّارات من تجاوز دوّار العباسيّين.

وصلنا حوالي السابعة والنصف صباحاً إلى المحطّة التي لم يكن فيها إلا عدد قليل من الحافلات، وقليل من المسافرين، أغلبهم من النّساء والأطفال والعجائز، بينما عجّت المحطّة بعناصر الأمن والشبّيحة الذين يتوزعون في أنحاء المحطّة كلّها. بقينا ننتظر امتلاء الحافلة حتّى العاشرة والنّصف، بينما كانت أصوات المدافع والانفجارات لا تفارق أسماعنا، هذه الأصوات التي اعتاد النّاس عليها، ففقدت هيبتها ورهبتها الطبيعيّة.

بعد الإجراءات الاعتياديّة بتفتيش الأمتعة، وجمع البطاقات الشخصيّة لعرضها على الحاسوب (التفييش). جاء السائق ومعه البطاقات الشخصيّة، وقف في أول الحافلة وهو يقول متذمّراً:

– على كلّ واحد أن يدفع ١٠٠ ليرة إضافيّة، لأنّنا مضطّرون لتغيير خطّ سير الرحلة، فسنتحوّل إلى طريق (التلّ)، بدلاً من طريق (حرستا) لوجود اشتباكات.

لم ينتظر السائق أن يسمع موافقة الركّاب، بل بدأ بتوزيع البطاقات الشخصيّة، وجمع الأجرة، ولم يلتفت أحد لهمهمة بعض المسافرين المعترضين.

انطلقت الحافلة، وبدأت رحلة المعاناة مع الحواجز التي تبلغ حوالي عشرة حواجز، بدءاً من حواجز منطقة برزة، وحتّى العودة إلى الطريق الدوليّة، عند كلّ حاجز يصعد إلى الحافلة عنصر أمن، ينظر إلى الركاب ويتفحّص وجوههم، ثمّ يطلب من السائق أن يفتح له الجيوب التي توضع فيها الأمتعة، وبعد كلّ مرّة يصعد السائق متذمّراً، وهو يدمدم بكلمات يفهم منها أنّه دفع رشوة، علماً أنّ بعض عناصر مليشيات نظام الأسد من الشبّيحة كانوا يجلسون في الصفّ الأمامي قريباً من السائق، ولكنّ الأمر صار اعتياديّاً فليس فيه شيء يدعو للاستغراب أو التعجّب، فضلاً عن الاعتراض.

لم نعد إلى الطريق الدوليّة بين دمشق وحمص إلا بعد مضيّ ساعتين. علماً أنّه لم يَطُل وقوفنا إلا عند حاجز واحد، هو الذي صعد المسؤول عنه إلى مقدّمة الباص مبيّناً بصراحة مطلقة

أنّه لا يأخذ رشوة، وينبغي التدقيق في كلّ شيء.

وبعد أكثر من نصف ساعة من السير على الطريق الدوليّة وصلنا إلى حاجز القطيفة وهو أسوأ حواجز طريق دمشق حمص الدوليّ على الإطلاق، حيث يتمّ فيه التدقيق الشديد والتفييش الرباعي – عرض بطاقة المسافر الشخصيّة على حواسيب أجهزة الأمن كافّة، السياسيّ والعسكريّ والجويّ وأمن الدولة والأمن الجنائي– مكثنا حوالي الساعة ونحن ننتظر في جوّ شديد البرودة. ساوريني القلق قليلاً، مع أنّني قبل سفري كنت قد دفعت خمسة آلاف ليرة للتفييش أكثر من مرّة، لأطمئن على وضعي من الناحية الأمنيّة، وجاءت النتائج أنّني غير مطلوب لأيّ فرع أمن.

انطلقت الحافلة ثانية لنتابع السير إلى حمص، كم أنا مشتاق إليها، وإلى من تبقّى من أهلها، بعد أن هجّرت عصابات الطاغية بشار أغلبهم إلى شتّى بقاع الأرض، آه كم أحنّ إلى مسجد حيّنا، إلى أشجار حيّنا، إلى دكاكين حيّنا، إلى وجوه أهلّ حيّنا، إلى البشاشة الصادقة والابتسامة الصافية، إلى

البساطة الفطريّة، أحنّ إلى أفراحهم إلى خصوماتهم، إلى تراب حيّنا وحجارته، إلى البيوت الدافئة بالحنان والمودّة، وقد أصبحت خرابات مقفرة بعد أن كانت عامرة تنبض في ذراتها الحياة.

مررنا بعدّة حواجز في طريقنا، ولكنّ أمرها كان سهلاً هيّناً بالنسبة إلى ما عانيناه في الحواجز السابقة.

وأخيراً وصلنا إلى مدخل مدينة حمص عند (دوّار تدمر)، وبدأ هواء حمص العليل يداعب وجوهنا، أوّل مرّة منذ حوالي ثلاث سنين، بدأت ملامح حمص تبدو أمامنا بكلّ ما تحرّكه فينا من أفراح وأحزان وأشجان.

صحيح أنّنا بتنا ندرك عظيم نعمة الله تعالى على البشر أنّه لم يجعل الروح محدودة بزمان ومكان أكثر من أيّ وقت مضى، فنحن وإن تباعدت أجسادنا عن حمص وأهلها، فإنّ أرواحنا كانت هناك تطوف على قلوب أحبتنا، وفضاءات مساجدنا، نعود في اليوم الواحد مرات ومرات، ولسان حالنا يردد قول الشاعر: ولستُ ملوماً إنْ بكيتكَ منْ دمي

إذا قعدتْ عني الدموعُ السواكبُ

ولكن أن يحضر الجسد بجوارحه كلّها فهذا غاية الطموح والآمال.

حمص العديّة[٢]

لا شك أنّ الإنسان صاحب الفطرة السليمة يحبّ المكان الذي ولد فيه، والأرض التي نشأ وترعرع فيها، واستنشق هواءها، وأكل من خيرها، وشرب من مائها، وعاش مع ناسها، وتقاسم معهم الحلو والمرّ والعسر واليسر، هذا أمر من الفطرة التي خلق الله البشر عليها، يقول المتنبي:

أحبّ حمص إلى خناصرة.. وكلّ نفس تهوى محياها.

هذا أمر يسري من قلوب الآباء والأمهات إلى الذريّة والأولاد، يتغلغل هذا الحبّ في القلوب ويأخذ بها، ولو كان الوطن قفراً أو بادية أو جبلاً.

ومن أقسى ما يمكن أن يتعرّض له المرء في حياته أن يفارق وطنه مكرهاً، وخصوصاً إذا تعلّق الأمر بعدو غاصب، أو

[٢] ـ نشرت هذه الفقرة كمقالة في مدونات الجزيرة تحت عنوان (سنرجع يوماً إلى حمصنا)

طاغية ظالم، ولقد قال رسولنا صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكّة: (وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ)[٣].

خرجنا من بيوتنا في حمص منتصف ليلة الأربعاء، ليلة الخامس عشر من آذار من عام اثني عشر وألفين على عجل، جمعنا بعض الحاجيات الخفيفة، وتركنا بيوتنا كما هي، بما فيها من أثاث ومتاع جمعناه عبر حياتنا شيئاً فوق شيء، وبما فيها من طعام ومؤنة، وكنّا نظن أننا سنرجع بعد بضعة أيام، صلينا آخر عشاء في مسجد البرّ، حيث لم يبق إلا بضعة نفر، خرجنا سيراً على الأقدام نتحسس طريقنا نحتمي بالجدران والأشجار في ظلام دامس حيث لا كهرباء، وضوء القمر ضاع خلف غيوم آذار.

وها قد مضى على شتاتنا حوالي ثلاث سنين، ارتحلنا فيها من مكان إلى مكان، وطوتنا الدروب والطرقات، ننام ونصحى على أمل العودة، أحلامنا ذكريات، وذكرياتنا أحلام، تكاد

[٣] - إسناده صحيح، أخرجه أحمد (١٨٧١٥) والترمذي (٣٩٢٥) وغيرهما.

قلوبنا تنفطر شوقاً لحيّنا المحتل من عصابات الأسد.

نعم أشتاق إلى حمص التي قال عنها ولدها الضائع بعيداً عنها، التائه في غربته عبد الباسط الصوفي:

مدينتي، لا تملكُ الذَّرّهْ مدينتي، طيّبةٌ، حرَّهْ.

لا تصلب الإنسانَ في آلةٍ أو تمضغُ الأحقادَ في فِكْره.

مدينتي، نبضاتُ قيثارةٍ حيناً، وحيناً ضحكةٌ ثرَّه.

قديمةٌ، كالحبِّ، ميلادُها لما صحا درب الهوى مَرَّه.

حمص التي أُحبّها قلوب كبيرة تتزاحم فيها الحكايات الغريبة، تنبت في ربوعها التفاصيل الصغيرة، وفي شقوق جدرانها الرؤى الشاردة، فتثمر أحلام يقظة ملفوفة بوجع اللحظة، وأنين الذكريات الصامتة.

حمص نشوة الأحاديث الدافئة في برد كانون. همهمة تسبيح عند ترجيع صوت أذان. غصّة الأحرف المهملة من دعاء الأمهات.

حمص طرائف مولودة من رحم الأربعاء، تفترّ عن دمعة لها جناحا ضحكة ترن ملء الفضاء، تروّح القلوب، تتجاوز حدود

الزمان والمكان، تزيل العناء، تصارع الأنواء .

حمص تنام ملء جفونها، تبكي وتضحك كلّها، قلبُها وعيونها وأظفارها، تصوغ النّكات خيام فرح لدموع البائسين.

حمص رائحة تراب يعانق مطر الشتاء عند لقاء جديد، عاصي حنان في قلب أمّ لأول وليد، فرحة محروم بأمل جديد.

حمص تمطر غيومها رحيق محبة على بذور الوفاء، فيشمخ في الذُّرى صدى التكبير، ويفوع المسك ممزوجاً بدم الشهداء، ويملأ الدنيا بيادر من عطاء.

حمص مآذن شامخة تغازل السحاب، تعاند النجوم، تنير ظلمة الدروب، لا تنحني لعاتي الرياح.

حمص تصدّق كلّ من يقول، لكنّها تشمّ رائحة الأوغاد، ترى خبث نواياهم، وتسمع أحاديث نجواهم، تعرف غدر نظرات العيون.

حمص نفوس طيبة تأنف العيش مع الطامحين إلى عزّ عبودية الدينار، الصاعدين إلى ذُرى الحضيض.

حمص تكره السارقين من عيونها طهر الحياء، الجاثمين فوق

آهات الثكالى واليتامى، الحاملين لواء تعكير الصفاء.
حمص أمانة أبي عبيدة وأمنية خالد وحبّ ثوبان وندم وحشي وعفة ابن عبد العزيز، امتزجت ذرات ترابها بأجداث الخالدين.
شباب حمص بذلوا ربيع أعمارهم ليزهر ربيع أمتهم، منهم من ترك جامعته، ومنهم من ترك عمله، ومنهم من ترك عيشاً رغداً في ظلّ أسرته، ومنهم من ترك أرضاً تعشق يديه، ومنهم من ترك عيادته. أجلّوا الحديث عن أحلامهم الصغيرة ليولد حلم أمّتهم. شباب كرام النّفوس، يأبون الذل والهوان، جباههم لا تنحني إلا لخالقها، همهم تتجاوز السحاب، حميّتهم لأهلهم وأعراضهم عالية شامخة بشموخ وعزّة إيمانهم، لا يقبلون الخنوع والصَغار، إحساسهم مرهف، يغلي دم عروقهم حين يعلمون بأذى يلحق بأهلهم وإخوانهم، ولا يطيب لهم عيش حتى يبذلوا مهجهم فداء لهم. غيّب الموت ألوفاً منهم، دارت عليهم رحاه، طوت جسومهم الأيام، ابتعدوا عن العيون، ولكنهم حفروا أسماءهم في سويداء القلوب وشماً خالداً تتناقله الأجيال، ويعزفه التاريخ لحن حياة عزيزة، يُسمع صداه في ذُرى الجبال، ويسري

عليلاً مع النسيم كلّ صباح.

جرّبت الغربة طوعاً سنين، عرفت آلامها، ذقت مرارتها، أسقمني الشوق لهواء حمص، وفاضت بحار الحنين حروفاً وكلمات، لكنّ أوجاعي هذه المرّة بطعم آخر، بطعم القهر والحرمان، بطعم الخوف من طول الشتات، بطعم الخوف أن تسرق مدينتي كما سرقت فلسطين، بطعم العجز والخذلان.

أيقظني من أحلام يقظتي صوتُ مرافقي، وهو يقول:

– هذا آخر حاجز على الطريق، ولابدّ هنا من التفييش مرّة جديدة.

طلب منّا السائق النزول من الحافلة بعد أن جمع البطاقات الشخصيّة، وسلّمها لعنصر الأمن الذي وقف عند الباب، فأخذها إلى غرفة صغيرة، تابعته بنظري فإذا هو يكلّم أحداً ما على هاتف سلكي، ينظر في البطاقة ثمّ يكلّم من يسمعه، ثمّ انشغلت بالحديث مع مرافقي بينما تحرّكت الحافلة بعيداً.

عاد عنصر الأمن بعد أكثر من نصف ساعة إلى حيث يتجمّع ركّاب الحافلة عند دوار تدمر، وبدأ يسلّم المسافرين بطاقاتهم

الشخصيّة، ينادي على الشخص ثمّ يرمي له بطاقته، والجميع ينتظر اسمه بخوف وقلق، وأنا أقول: ربّما اسمي بعد هذا، وبعد هذا، ونادى باسم مرافقي، وبدأت تنفد البطاقات من يده، وبدأ قلقي يزداد، ودقّات قلبي تسابق بعضها. ولم يبق معه إلا بطاقة واحدة، ثمّ نادى باسمي، ولكنّه أردف بعده قائلاً:

– تعال معي... هل أوقفت قبلاً في أحد فروع الأمن؟

قلت: لا.

مع أنّني أوقفت قبلها مرّتين، مرّة في عام اثنين وثمانين، ومرّة في عام أربع وتسعين، ولكنْ هذا ما جرى على لساني من غير أن أفكّر، ثمّ قلت في نفسي: إن سألوني عن هذا أقول لهم: ظننت أنّه يقصد بعد الأزمة، طبعاً لا يجرؤ أحد في مثل هذا الموقف أن يقول ثورة.

مشيت خلفه بينما كنتُ أُعطي مرافقي أمتعتي من غير أن يشعر عنصر الأمن، وأوصيته أن يتصل بزوجتي والأولاد ويخبرهم أنّ المسألة عرضيّة. وأنا لا أعرف حتّى الآن هل سيعتقلونني حقّاً أم لا؟ ولا أعرف إلى أي فرع ينتمون. مشيت خلف

عنصر الأمن، وهو شاب في أوائل العشرينات بدا لي واضحاً شعوره بالسعادة، وهو يقبض على رجل مطلوب، قلت وأنا أسير خلفه: إنّني موظّف ما زلت على رأس عملي، أخرجت له بطاقة العمل- وكانت ما تزال معي- فعاد بي إلى الغرفة الصغيرة، وطلب مني أن أقف خارجاً، بينما عاود الاتصال بالفرع، وسمعته يقول: فلان وذكر اسمي، يقول: إنّه موظف على رأس عمله، ثمّ تمتم: حاضر سيّدي.

بقيت بطاقتي الشخصيّة في يده، بينما كنت أمشي خلفه، ربّما كان كِبَرُ سني مشجعاً له ليتركني أمشي خلفه من غير أن يأخذ بيدي، أوصلني إلى مفرزة الأمن في محطّة الانطلاق، وهي عبارة عن غرفتين اسمنتيّتين، في داخلهما سرير عسكري قذر، وطاولة قديمة خلفها كرسي مثلُها، وأشياء أخرى مبعثرة في الغرفة، كراسي بلاستيكيّة وغاز وإبريق شاي وبضعة كؤوس ومصاصات (متّة) وغيرها.

خرج من باب الغرفة قبل أن نصل إليها شاب نحيل يضع على كتفه رتبة ملازم، أعتقد أنّه مجنّد؛ لأنّ عمره كان أكبر من عمر

الملازم حين يتخرّج من الكليّة الحربيّة، بادره العنصر الذي أوصلني قائلاً: سيدي هذا مطلوب للفرع. نظر إليّ ثمّ أشار إلى أحد الكراسي وهو يقول:

– اقعد.

وعندما همّ بالجلوس خلف الطاولة وقف أحد العناصر في الباب وقال له:

– سيدي.

فخرج إليه، تذكّرت هنا أنّ معي ثمانية عشر ألف ليرة أحملها أمانة لإحدى أسر الشهداء، والمشكلة أنّني لففته بورقة كتبت عليها اسم الأسرة، قلت في نفسي إذا رأوها لن أتخلّص من أسئلتهم، وستكون مشكلة وربما اعتبروها دليل إدانتي، فاغتنمت خروج الملازم مع العنصر إلى الخارج فأخرجت النقود، وأخذت الورقة التي لففتها بها وجمعتها على بعضها حتّى غدت قطعة صغيرة رميتها على الأرض بهدوء.

مرّ على ساحة ذهني في تلك اللحظات كلّ ما قمت به من نشاطات منذ بداية الثورة، وعصرت ذاكرتي لأخمّن سبب

جلوسي هنا، أتذكّر أنّني شعرت بنوع من الذهول رافقه دوّار خفيف، ولم يقطع حالتي هذه إلا صوت الضابط الذي عاد بعد حوالي عشر دقائق:

– (إي رجعنا لك) ضعْ كلّ ما تحمله هنا.

أخرجت ما في جيوبي (محفظة النقود والمفاتيح) ووضعته على الطاولة، قال لي:

– انزع الساعة.

وكانت المرّة الأولى التي ألبس فيها ساعة منذ زمن، كانت ساعة غالية الثمن، أهدانيها أحد أصدقائي، كان أرسلها إليه أخوه من الكويت، قال لي بعض الإخوة إنّ ثمنها مئتي دولار.

قال الضابط وهو يقلّب الساعة في يده: إنّها جميلة.

قلت له: مقدّمة. وأنا أمنّي نفسي أن يأخذها، لعلّه يرأف بحالي ويحسن معاملتي.

قال: (شو المناسبة؟)

قلت: بدون مناسبة، ولكن هكذا هي العادة عندنا، إنْ قال أحد عن شيء يملكه أحدهم جميل. يقول: له (مقدّم) أيْ:

خذه إن أحببت.

طبعاً عندما استلمت أغراضي بعد ذلك، عند إطلاق سراحي أعطوني ساعة قديمة رخيصة الثمن لا يتجاوز ثمنها دولاراً بدلاً عنها، وأظن أنّ من سرقها هو هذا الضابط.

في الطريق إلى المنفردة رقم ٤

كتب على ورقة تفاصيل ما كنت أحمله من أشياء، ثمّ وضعها في كيس، وهو يقول:

– ستردّ هذه الأشياء لك عندما يطلق سراحك.

قلت: لقد مررت على أكثر من عشرين حاجزاً أغلبهم فيّش لي، وكانت أموري سليمة.

قال: هذا أمر خاص بكل فرع.

ثمّ تابع قوله: عليكم أن تغيّروا نظرتكم إلى الأمن، لا تخف إن لم تفعل شيئاً فسيطلقون سراحك.

كادت أن تظهر على وجهي ابتسامة ساخرة عندما سمعت كلامه، لأنّني أعلم أنّه على يقين مثل يقيني أنّ تسعاً وتسعين بالمائة ممّن تعتقلهم فروع الأمن أبرياء، لم يفعلوا شيئاً يوجب

الاعتقال، غير أنّهم معارضون لنظام آل الأسد، أو يظنّ رجال الأمن وأعوانهم أنّهم معارضون.

وهنا لابدّ أن أشير إلى الفوضى والعشوائيّة وعدم التنسيق بين فروع الأمن، فقد كان كلّ فرع دولة بذاته، يأخذ قرارته بالتصفية أو الاعتقال أو إطلاق السراح مقابل الرشوة بعيداً عن باقي الفروع، فلا تنسيق ولا تواصل ولا تعاون، وكان كلّ ذلك يقع على رأس السوري المسكين الذي كان يهيم على وجهه بين القرارات المتناقضة لهذه الفروع، فكم من رُشاً كبيرة دفعها أشخاص أبرياء ليطلق سراحهم من فرع من الفروع، ليجدوا أنفسهم بعد ذلك معتقلين في فرع آخر.

بقيت أكثر من نصف ساعة جالساً في المفرزة أنتظر السيّارة التي طلبها الملازم من الفرع كي يوصلوني بها، وقد بدأ القلق يستولي على ساحة قلبي، وبدأت الفِكر تغدو بي وتروح، وأنا أحاول أن أخمّن ما يمكن أن يكون سبب اعتقالي.

وصلت سيّارة (بيجو ستيشن) من الطراز القديم، قعد قرب السائق أحد العناصر، بينما أقعدوني في الخلف وسط عنصرين،

ثمّ انطلقت السيّارة بنا، وأنا مذهول أحاول النظر من النافذة لعلّي ألمح بعض معالم مدينتي، التي طال شوقي إليها، وما هي إلا دقائق حتّى وصلنا، لا أدري كيف! ولا أذكر ممّا رأيت إلا حواجز إسمنتيّة كثيرة.

ترجّلنا من السيّارة، ثمّ أنزلوني درجاً إلى قبو يجلس عند آخره رجل في الأربعينات – هو أحد المحقّقين كما عرفت ذلك بعد– عندما وصلت إليه، قال وهو ينظر إليّ:

– ألم يكن لك أخ موقوف عندنا؟

قلت: لا. ولا أعلم سبب سؤاله هذا إلى الآن. بينما تابع العنصر دفعي إلى الأمام، حيث مررنا بأكثر من طاولة، ولعلّ هذا هو الممرّ، وقد قسّموه أجزاء تستخدم كغرف تحقيق من كثرة المعتقلين، وقد شعرتُ أنّ معاملتهم بدأت تزداد قسوة وغِلظة، حتّى وصلت إلى آخر القبو، حيث توجد شبه غرفة، لأنّها بدون جدار أمامي، فيها رفوف خشبيّة، يوجد في زاويتها طاولة يجلس خلفها رجل في الخمسينات، استلم من العنصر كيس حاجياتي، وهو يقرأ الورقة المرفقة به: (محفظة – بطاقة

عمل- مبلغ مالي قدره ٢٧ ألف ليرة- ساعة يد - نظّارة- وجوال نوكيا ٧٣) ثمّ سألني مرّة ثانية عن اسمي واسم أبي.. وكتب ذلك كلّه على ورقة معدّة مسبقاً. ثم قال للعنصر:

- خذه إلى الرابعة.

ولم يخطر ببالي لحظتها أنّ المقصود هو الزنزانة الانفراديّة رقم أربعة.

دخلنا بعد خروجنا من الذاتيّة من باب حديديّ يقفل من الخارج، يقف بقربه أحد العناصر، استلمني عنصر جديد عند تقاطع دهليز طويل، وقد بدأت رائحة السجن تصل إلى أنفي بوضوح، حيث يمكن للمرء أن يرى أبواب بعض الزنزانات على جانب الممر.

قال لي بصوت قاس: انزع ثيابك.

كنت أعرف أنّ هذا سيحصل، فقد حدّثني كثير ممّن خرجوا من سجون فروع الأمن عن ذلك، حيث يطلبون من المعتقل أن ينزع كلّ ثيابه حتّى الثياب الداخليّة، نزعت ثيابي وأبقيت سروالي الداخلي، نظر العنصر إليّ، ولم يطلب منّي أن أنزعه-

ربما لكبر سني- ولكنّه طلب منّي أن أقوم بالتمرين التاسع عدّة مرات – يشبك المرء يديه خلف رقبته، ثمّ يجلس القرفصاء ويقوم ناهضاً بسرعة قافزاً في الهواء – ثمّ طلب منّي أن أنفض ثيابي قطعة قطعة، وكنّا في أيام فصل الشتاء، وكنت ألبس ثياباً كثيرة، ثمّ طلب منّي أن أنزع حزام (البنطال) وأرميه على كومة كبيرة من الأحزمة، هي لمن سبقني إلى هذا المكان. ثمّ أمرني أن أحمل ثيابي، ووضع عصابة سوداء على عيوني، وكانت هذه هي المرّة الأولى التي يضعون هذه العصابة على عيني، ثمّ دفعني أمامه.

في تلك اللحظة أدركت أنّي صرت معتقلاً بصورة رسميّة، ساورني شعور اختلط فيه الخوف والقلق بالقوّة والطمأنينة، نعم لا أعلم ماذا سيصنعون بي، ولكنّي كنت أحاول أن أقنع نفسي أنّ مجرّد وجودي هنا شرف بنفسه، فقد مرّ على هذا المكان آلاف المعتقلين قبلي، كثير منهم تمّ قتلهم ونالوا الشهادة، وآخرون خرجوا وقد أصيبوا بعاهات دائمة، أو فقدوا عقولهم، وآخرون خرجوا يحدّثون النّاس عمّا عانوه من وحشيّة هؤلاء

الجلّادين، وشرف لي أن ألحق بذلك الركب من المظلومين، إنّه شعور يعطي المرء شيئاً من احترام الذات وتقديرها.

كنت أرى قليلاً إذا صوبت بصري تجاه الأرض، ولكن لا أرى إلا أرضيّة الممرّ الذي أمشي فيه أمام هذا الجلّاد الذي يدفعني بيده بين الفترة والأخرى، مشيت ما يزيد على عشرة خطوات فقط، أوقفني الجلّاد جانباً بينما كان يفتح باب الزنزانة، ثمّ دفع بي إلى داخلها وأغلق الباب خلفي وانصرف، وقفت عند الباب بينما كان أربعة من المعتقلين يديرون ظهورهم لي، حتّى سمعوا قفل باب الزنزانة ليلتفتوا إليّ- علمت فيما بعد أنّه عند أيّة حركة خارج الزنزانة ينبغي على من في الزنزانة أن يستدير إلى داخل الزنزانة بسرعة، وأن يولي ظهره قِبَل الباب، حتّى لا يرى شيئاً، ومن يخالف يتعرّض لعقوبة قاسية-.

لن أنسى تلك اللحظة ما حييت، حيث وقفت عند الباب شبه عارٍ أحمل ثيابي، وحذائي في يدي، انظر مشدوهاً إلى تلك الوجوه التي يجتمع فيها بؤس الدنيا كلّه، قال لي أحدهم:

- البس ثيابك.

بينما كانت أسئلة الآخرين تتزاحم عليّ:
-كم الساعة الآن؟ - ماذا يجري في الخارج؟ - متى اعتقلوك؟

انفراديّة جماعيّة

الزنزانة الانفراديّة مخصصة في الأصل لمعتقل واحد، وغالباً ما يوضع فيه المعتقلون الأشدّ خطراً، أو الذين يعاقبون ممّن يرتكبون مخالفة ما من المساجين الذي يكونون في الزنزانات الجماعيّة، أو يضعون فيها من يريدون أن يوصلوه إلى درجة تنهار فيها مقاومته وصبره، فيعترف لهم بما يريدون.

ولكن لكثرة المعتقلين، وإمعاناً في الإذلال والوحشيّة انقلبت المنفردات إلى زنزانات جماعيّة، وصل عدد نزلائها في يوم من أيام وجودي فيها إلى سبعة معتقلين، ولا شكّ في أنّ لهذا جانب رحمة بالمعتقلين، حيث يجد المعتقل من يتبادل معه أطراف الحديث.

لك أن تتصور أنّ زنزانة طولها حوالي ٢٠٠سم، خمس (بلاطات) مقياس ٤٠×٤٠، وعرضها ١٢٠ سم، ثلاث (بلاطات) مقياس ٤٠×٤٠. يُحشر فيها هذا العدد من البشر،

إذا أراد أحدهم أن يستلقي أو يتمدّد لن يجد الآخرون متسعاً ليقعدوا لا ليستلقوا، فإذا نزل عدد نزلائها إلى أربعة في يوم من الأيام كان كأنّه يوم عيد على الباقين. لم يكن يخطر على بالي وأنا فيها إلّا أنّني في قبر، فهي تشبهه من جميع الجوانب، ضيقها وحرارتها التي تجعل السجين يتعرّق في كانون الأوّل، مع أنّه قد نزع أكثر ثيابه، بالإضافة إلى أنّ الهواء الذي يتسلل من خلال فتحة صغيرة في الباب لا تتجاوز عشرين سم يتقاسمه خمسة أو ستّة أشخاص.

رأيت في عام ١٩٨١ ما هو أقسى وأشدّ، اعتقلت وقتها يوماً وليلة في فرع أمن الدولة، أيام المجرم مصطفى أيوب، وكنت في الصف الثاني الثانوي، حيث أجلسنا زبانية نظام الأبّ حافظ في الممرّ، وكنّا حوالي العشرين، وكانوا يطلبون منّا إذا أرادوا فتح أحد أبواب الزنزانات أن نستدير إلى الجدار، ولكنّني وكان عمري في ذلك الوقت حوالي سبعة عشر عاماً أملِك الجرأة لأسترق النظر إلى داخل الزنزانة، ورأيتُ المعتقلين يقعدون القرفصاء متلاصقين، بحيث يسند الواحد منهم ركبتيه بظهر

الآخر، وهكذا حتّى يصل آخرهم إلى الباب، وقد حُفر ذلك المشهد في ذاكرتي، ولا أدري كيف كانوا يستطيعون تحمّل ذلك.

لا يوجد في الزنزانة باب أو ستارة لمكان قضاء الحاجة، يقضي المعتقل حاجته أمام الباقين الذين يغضون أبصارهم، ويتجاهلون ما يفعل، وهو يحاول أن يستر نفسه ما استطاع، ولا يوجد صابون للتنظيف، يحكّ المعتقل يديه ببعضهما ما استطاع، وينتهي الأمر، لم أستطع أوّل الأمر تصوّر حصول هذا، ولكن مع الوقت اعتدت عليه، فكان قضاء الحاجة عقوبة بحدّ ذاته.

في مكان قضاء الحاجة صنبور ماء، هو المصدر الوحيد لكلّ وجوه استعمالات الماء، منه نشرب، ومنه ننظّف أنفسنا، ومنه ننظّف الزنزانة.

كانت المياه مقطوعة أغلب الوقت، وفي بعض الحالات حين تأتي لا نكاد نجد الوقت الكافي لنملأ كلّ القوارير القذرة المركونة بين القذارات، وهي زجاجات بلاستيكيّة قديمة لمشروبات غازيّة أو مياه معدنيّة، وهي حوالي عشرة موجودة في طرف المرحاض،

ولا أدري كيف وصلت إلى هنا. اختار نزلاء الزنزانة اثنتين منها، كانتا الأقلّ قذارة ليخصّصوهما للشرب، يتمّ غسلهما بشكل جيّد في كلّ مرّة.

الحمام مليء بالأوساخ وبقايا الأطعمة القديمة، وهو مرتع للصراصير والحشرات، في أعلاه ربط ما يشبه الحبل، لا أدري كيف رُبط، ولكنّه عبارة عن قميص قديم ملفوف على شكل حبل، وضعت عليه بعض الثياب البالية القذرة، أظنّ أنّها لمساجين سابقين، في بعض الأوقات الحرجة عندما اكتظّت الزنزانة بالنزلاء، حاول أحدهم أن ينام في مكان قضاء الحاجة، وضع المسكين رأسه خارجها ومدّ رجليه داخلها، ومع ذلك لم يستطع النوم.

لبست ثيابي كلّها، رغم أنّني لاحظت أنّ رفاق الزنزانة يلبسون ثياباً خفيفة، مع أنّ الأوان أوان شدّة البرد، قلت:

- أريد أن أصلي الظهر، هل صليتم؟

تبسّم الجميع وقالوا: نحن صلينا العصر.

قلت: لم يؤذن العصر بعد.

قال أحدهم: هنا نقدّر الوقت تقديراً، لا نعرف ظهراً ولا عصراً.

التفّ حولي رفاق الزنزانة يسألونني، وكنت قد سمعت وقرأت عن وجود عملاء للأمن من بين المعتقلين، ممّا دفعني لأقصّ لهم قصّتي بكلام عام، مختصره: اعتقلت ولا أعرف السبب، ربّما لأنّني قدّمت استقالتي من وظيفتي. قطعت حديثي متسائلاً:

- في أي فرع نحن؟

قال أحدهم: فرع الأمن السياسي.

قلت: الحمد لله.

وكان قد انتشر بين أهالي حمص أنّ فرع الأمن السياسي هو أقلّ

الفروع سوءاً، فهي بالترتيب: فرع الأمن العسكري، وهو أشدّها سوءاً ووحشيّة وطائفيّة، ومرت عليه فترة ما بين أواسط ٢٠١٢ إلى أواخر ٢٠١٣، نـدَرَ أن خرج منه معتقل حيّاً، وعلى أقل تقدير إن خرج يخرج وقد أصيب بعاهة دائمة، يأتي بعده في السوء والوحشيّة فرع الأمن الجويّ، ثمّ فرع أمن الدولة

الذي قُتل فيه أول الثورة عدد من الناشطين تحت التعذيب، كجمال الفتوى وخالد مراد وغيرهم، ثمّ فرع الأمن السياسيّ، وكان رئيسه في ذلك الوقت العميد المجرم حسام لوقا. أقول أقلّها وحشيّة، وستعلمون من متابعة السرد أنّ هذه القلّة مسألة نسبيّة، فهو أكثر وحشيّة من سجون هتلر ونازيّته.

رفاق الزنزانة الانفراديّة

عندما دخلت إلى الزنزانة كان فيها أربعة معتقلين، وللمصادفة كانوا جميعاً من حي بابا عمرو وما حوله.

أكبرهم سناً وأقدمهم في الزنزانة الانفراديّة رقم أربعة رجل بين الخمسين والستين، كان قد مضى عليه حوالي ثلاثين يوماً في المنفردة هذه، هزيل الجسم ملأت القروح يديه ورجليه، وعشّش القمل في جسده وثيابه، فكان يقضي جلّ وقته في تنظيف ثيابه من القمل. اعتقل قبل هذه المرّة مدّة عام، وله أخوان شهيدان كما قال. كان قليل الكلام، إذا انتهى من تنظيف القمل استلقى على ظهره، ولا يأبه أبقي مكان لقعود الباقين أم لا، بقي في الزنزانة بعد دخولي مدّة يومين، ثمّ أخذوه، علمت

فيما بعد أنّه نقل إلى الجماعيّة ولم أره بعدها.

الثاني من آل جمعة في بابا عمرو وهو في الخمسينات من عمره أيضاً، كان قد سبقنا إلى الزنزانة رقم أربعة منذ حوالي (١٥) يوماً. يعمل خيّاطاً، خرج من بابا عمرو وتشرّد مع أسرته حين خرج أهلها قبل دخول الجيش والشبّيحة إليها في آخر شباط ٢٠١٢، ولكنّه عاد إليها مع أمّه وزوجته وأولاده – مع قلّة قليلة جداً من أهلها– بعد مراجعة فروع الأمن. سكَن بيته، ولم يكن يسكن في المكان سواه، وفتح دكّانه ليكسب اليسير ممّا كان يعطيه إيّاه عناصر الجيش والشبّيحة الموجودون هناك أجرة خياطة ثيابهم، أو إصلاحها أو كيّها حسبما قال. كان يقول جلّ المجندين جيء بهم من باقي المحافظات منهم الحلبيّ والدمشقيّ والحمويّ وغير ذلك. مكث على هذا الحال حوالي السنتين، وهو يتعيّش ممّا بقي في البيوت التي هُجّر أهلها بعد أن نهبها الشبّيحة، يأكل من ثمار أشجارها، وأشجار البساتين المحيطة، كان يقول إنّها ستتلف على كلّ حال، فلمَ لا نستفيد منها. خدمته لعناصر الجيش والشبّيحة لم تشفع له، فقد

استيقظ في يوم من الأيام على دوريّة الأمن وهي تقرع باب بيته، ليتمّ اعتقاله بناءً على تقرير من أحد المساعدين الموالين، اختلف معه على أجر عمل قام له به، بقي معنا في الانفراديّة حوالي عشرة أيام ثمَّ خرج ولم أره بعدها.

الثالث شاب في الثلاثينات من عمره من أسرة معروفة في بابا عمرو، هي أسرة آل العمر، وكان لهذه الأسرة كتيبة باسمها في ذلك الوقت، كان جسيماً قويّ البنية، سكن في الشبابيّة بعد خروجه من بابا عمرو مع زوجته وأولاده وأبيه، وفتح بقاليّة (برّاكيّة) في كشك بناه على الرصيف كمعتمد لبيع الخبز، ثمّ طوّر عمله ليشمل كلّ بضائع البقّاليات، كان يقول مفتخراً: عندي في البقاليّة كل ما يمكن أن يُطلب من الإبرة والخيط إلى الأطعمة والأشربة و الأواني وغيرها. يقول هذا وهو يتحدّث عن تجربته بإعجاب، سارت أمور تجارته بشكل جيّد –وهو يقدّم للجهة الأمنيّة التي كانت تشرف على المنطقة الرشوة المفروضة. وازدهرت تجارته حتى استطاع شراء سيّارة صغيرة، ولكن كحال كلّ السوريين في دولة عصابات الأسد لا يمكن

للمرء أن يشعر بالأمان أو الطمأنينة مهما فعل، فلم يدر إلا وسيّارة دوريّة فرع الأمن تقف أمام بقّاليته وينزل منها عناصر الأمن الذين يعرفهم ويدفع لهم المعلوم أسبوعيّاً، الطريف أنّه ظنّ أنّهم قادمون ليشربوا عنده القهوة. ولكنّهم مع تحيتهم اللطيفة ومخاطبتهم له بكنيته، طلبوا منهم أن يأتيَ معهم إلى مدّة خمس دقائق، يريد أن يراه المعلّم، كما قالوا. قال لهم وهو يتصنّع ابتسامة تخفي هلعه: ما القصّة يا أبا فلان؟!

يخاطب المساعد الذي طالما تخيّر من بضائع دكّانه ما يشاء من غير أن يدفع شيئاً. قال له المساعد:

– لا تخف يا أبا محمد خمس دقائق فقط، سؤال وجواب.

سمحوا له أن يقفل باب بقاليته، وجلبوا معهم سيّارته الحمراء الصغيرة، ليستخدموها بعد ذلك كإحدى سيّارات الفرع.

مرّة دخل أحد المعتقلين الجدد واسمه أبو ممدوح، وسيأتي الحديث عنه، وبينما كان يتحدّث عن اعتقاله، قال: ثمّ أتوا بي إلى الفرع بسيّارة حمراء ماركة كذا. فسأله أبو محمد: علامتها كذا وكذا. قال: نعم. قال هذه سيّارتي، وجعل يسبّ ويلعن

وهو يقول: (بكونوا خرّبوها ولاد الحرام) كأنّ المسكين كان يظنّ أنّه سيخرج ثانية، ويستردّ سيّارته.

وها هو يجلس بالانفراديّة رقم ٤ منذ سبعة أيام، وتهمته كما فهم في أثناء جلسة التحقيق: نقل المسلّحين بسيّارته إلى خارج بابا عمرو.

كان يتساءل دائماً: يا ترى ماذا حصل للبرّاكيّة، وما فيها؟ ماذا حصل لزوجتي وأولادي؟ ثمّ يطمئن نفسه فيقول: الحمد لله أنّ والدي معهم. وكان كثيراً ما يردّد:

– كان عليّ أن أسمع نصيحة زوجتي بالسفر، جوازات السفر في الخزانة، ما كان عليّ إلا أن آخذها وأسافر، وما كنت الآن ههنا.

كان رابط الجأش صابراً على التعذيب، لم يقرّ في جلسة التحقيق الأولى بشيء ممّا اتهموه به، مع أنّهم عذّبوه بقسوة لدرجة أنّه بقي ساعات طويلة لا يستطيع الوقوف على رجليه من كثرة ما تعرّضتا للضرب، كان يأكل من كلّ ما يقدّم لنا على أنّه طعام، ولم تتأثّر صحّته كثيراً.

في جلسة التحقيق الثانية لم يستطع التحمّل، وكانت قبل نقلي من الانفراديّة بيوم أو اثنين، فعاد وقد انهار من شدّة التعذيب الذي بدت آثاره على وجهه ويديه ورجليه، وقال:

– لقد اعترفت بما يريدون، كادوا يقتلونني.

مكثنا معاً في الزنزانة الانفراديّة رقم أربعة حوالي عشرة أيام، ثمّ تركته فيها بعد أن تمّ نقلي إلى الجماعيّة، وقد رأيته لاحقاً في السجن البولوني عندما نقلونا إلى الرباعيّة، وقد تدهورت صحّته بشكل لافت، وخسر كثيراً من وزنه. وأخبرني والمرارة تعتصر كيانه وكلماته أنّهم نُهبوا براكيّته. ولم أره بعدها.

الرابع شاب في العشرين من عمره، كان مع الشباب المحاصرين في حمص القديمة، ثمّ خرج بتسويّة مع الأمن، وبقي حوالي الشهرين، ثمّ اعتقل على أحد الحواجز مع أحد أصدقائه، بعد تفتيش جوّاله حيث وجدوا صورة له يحمل فيها بندقيّة عندما كان محاصراً، اعتقلوه مع أنّه أخرج لهم الوثيقة التي أعطوه إيّاه عندما قام بالتسوية.

كان لا يتكلّم إلا نادراً جاء قبلي بيوم، ومكث بوجودي يومين

خضع لجلسة تحقيق ضُرب فيها ضرباً مبرّحاً كغيره. ثمّ خرج ولم أره بعدها. هؤلاء الأربعة هم رفاقي الذين سبقوني إلى الزنزانة المنفردة رقم أربعة.

لا شكّ أن القلق والاضطراب والخوف كان عاملاً مشتركاً بيننا، وربّما يكون ذلك نتيجة تصوّر ما يمكن أن يكون قد حصل لأسرة كلّ واحد منّا بعد اعتقاله. وهذا حال أغلب المعتقلين، فرغم ما هم فيه من آلام وعذابات إلا أنّ قلقهم على أسرهم وأهليهم كان أكثر أثراً عليهم، لما يعلمونه من وحشيّة هذا النظام الفاجر وسفالته وانحطاطه.

فالتصوّرات التي تمرّ بخاطر المعتقل مخيفة وفظيعة، أدناها أنّهم يمكن أن يعتقلوا أهله بذريعة اعتقاله، وأعظمها أنّهم يمكن أن يستخدموا أسرته وسيلة ابتزاز وضغط عليّه ليقول ما يريدون.

ولمثل هذا الاحتمال كنت قد أوصيت زوجتي أنّه في حال تمّ اعتقالي في أيّ وقت، وكان هذا متوقّعاً لكلّ سوريّ ينتمي إلى المناطق الثائرة، فعليها أن تغادر البيت هي والأولاد، ولا تأخذ معها إلا الأوراق الضروريّة والوثائق الرسميّة، وهذا ما حصل

بالفعل.

دروس في الزنزانة

القلق والخوف والاضطراب لم يحجب عنّي إحساساً داخليّاً بالاصطفاء، كنت أقول في نفسي: ما أنا فيه بلاء، لا شكّ في ذلك، وأيّ بلاء؟ والله تعالى له حكم في ابتلاء عباده، وهو سبحانه حكيم خبير سميع بصير رحيم، وهذا ما جعل وطأة ما يمكن أن يحدث في جلسة التحقيق أمراً ليس بتلك المأساويّة، فأقسى ما يمكن أن يُفعل بي هو القتل، وهي شهادة، ويا لها من خاتمة لحياة عشت فيها ما يزيد عن خمسين عاماً، أكرمني الله فيها بكلّ ما كنت أطمح إليه، هكذا كنت أحدّث نفسي.

هذا الشعور الفريد جعلني أقول في نفسي قد جاءتك الفرصة إلى عندك فاغتنمها، فهؤلاء إخوة لك قد وقع عليهم من الظلم والاضطهاد والبغي ما وقع عليك، وقد أكرمك الله بالعلم الشرعيّ والجلوس بين يدي العلماء فأدِّ شكر نعمة الله عليك، وصبّر نفسك وصبّرهم، وأدخل على قلوبهم الأمل وأبعد عنهم اليأس والقنوط، واملأ هذا الوقت المهدور بما ينفعك، وينفعهم

في الدنيا والآخرة، واستحضرت ما قصّه الله علينا من فعل سيّدنا يوسف عليه السلام في السجن من الدعوة إلى الله، وهو عمل في الوقت نفسه يسلّيني وينسيني ما يقلقني بشأن أسرتي.

طرحت على رفاق الزنزانة فكرة أن أحكي لهم جزءاً من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلّم بعد كلّ صلاة، وما شجعني على ذلك وحفزني عليه أنّني رأيت الجميع يصلّون، رغم كلّ التضييق والتخويف، كنّا نصلّي جماعة مع أخذ الحذر والحيطة من أن يلاحظ الزبانية ذلك.

لاقت الفكرة ترحيباً كبيراً من الجميع، حتّى إنّهم كانوا يطلبون منّي الاستمرار في الحديث بعد أن أنهي جلسة ما بعد الصلاة.

كنت أستفيض في بيان ما تعرّض له رسول الله وأصحابه، من الاضطهاد من كفّار قريش، والأذى المعنويّ والماديّ الذي أصابهم لثباتهم على الحقّ الذي آمنوا به، وفي هذا تربية من الله تعالى لهم، وإعداد لما ينتظرهم من مهام عظيمة في إقامة دولة الحقّ والعدل، أصابهم الأذى ووقع عليهم الظلم والاضطهاد، تعرّض النبيّ صلى الله عليه وسلم لكلّ هذه الشدائد مع علوّ

مكانته وقدره عند ربّه، وأنّه سبحانه كان قادراً على نصره من غير هذه المعاناة، ولكن ليكون ذلك أسوة وقدوة لكلّ مؤمن صاحب حقّ ليثبت على حقّه

مهما تعرّض للآلام والكربات والشدائد إلى يوم القيامة.

صحيح أنّني أرهقت نفسي من كثرة الكلام، وخصوصاً أنّ أمرين أساسيّين في حياة الإنسان افتقدهما هما: الطعام والنوم.

عذاب الطعام والنوم

لم أستطع في الأيام الأولى أن أكره نفسي على قبول ما يقدّم لنا على أنّه طعام، وهو عبارة عن وجبتين واحدة في الصباح والأخرى في المساء، القاسم المشترك فيهما ما شكله كشكل الخبز، ولكنّ رائحة عفونته وحموضته تسبق إلى أنف الإنسان، يخصّص لكلّ معتقل رغيف في الصباح، ومثله في المساء، ويقدّم معه كطعام لوجبة الصباح على الغالب لبن شديد الحموضة، هو أقرب إلى السائل ،قدّموا لنا نوعاً من أنواع المربّى مرّة أو مرّتين، ومثلهما بضع حبّات زيتون أخضر شديد المرارة، خلال فترة إقامتي في الفرع، وهي ما يقارب الشهر، علماً بأنَّ ما يقدّم

لا يكاد يكفي شخصين فقط، يتمّ توزيعه على العدد الموجود في الزنزانة.

وأمّا وجبة المساء فغالباً هي أرز أو برغل، يقدّم لنا في كيس نايلون، هو كيس خبز قديم، هو كخلطة الإسمنت، تكاد تتّحد حبات الرز أو البرغل فيه لتكون حبّة واحدة كبيرة، ولا يقدّمون معه شيئاً أبداً، وأذكر أنّهم عندما قدموا لنا مرّة بعد انتقالي إلى الجماعيّة بضع حبّات من الفجل كان كأنّه يوم عيد.

ومع ذلك كنّا نحمد الله تعالى على هذه النعمة، فقد مرت أيام على أهل حمص القديمة أيام حصار عصابات الأسد لهم أكلوا الحشائش وأوراق الشجر، كما أنّنا سمعنا وقرأنا عن معتقلين بالمئات؛ بل بالآلاف قضوْا جوعاً، بل أقسم لي أحد الأطباء من معتقلي الثمانينيّات، كان قد مكث في سجن تدمر أكثر من عشر سنين، أنّ البيضة الواحدة كانت مخصّصة لثمانية معتقلين، وكانوا يقطّعونها بالخيط إلى ثمانية أقسام.

أمّا النوم فكأنّما قد حلف أيماناً مغلّظة بأن يجافيني فلم يقربني أيّاماً، وكانت أقسى اللحظات تلك التي ينام فيها جميع من في

الزنزانة وأبقى يقظاً وحيداً. تغدو بي الفِكر وتروح، وتعصف بيَ الذكريات وتسكن، أعود إلى طفولتي، إلى أصدقاء الطفولة، إلى اللحظات الجميلة، إلى الأعياد والأفراح، إلى المآسي والأتراح، إلى أيام المدرسة إلى بعض أساتذتنا المميزين الذين فقدناهم في سجون الطاغية الأب، إلى أيام الجامعة وتسلّط الموالين على مفاصل الإدارة فيها، إلى خدمة العلم والقهر والذل والابتزاز الذي يعيشه المجندون، إلى العمل في تدريس التربية الإسلامية والخوف الدائم من التقارير، إلى السفر وابتزاز الراغبين فيه بجواز السفر والموافقات الأمنيّة، إلى أمور تكاد لا تنتهي من القهر والظلم والإذلال، هكذا قدرنا، شاء الله تعالى أن نولد في عهد حكم حزب البعث لسوريّة الذي تحوّل بعد انقلاب حافظ أسد إلى حكم الطائفة النصيرية ثمّ إلى حكم أسرة الأسد بعد ما سُمّيَ زوراً وبهتاناً حركة تصحيحية.

يا الله هل يعيش أولادنا ما عشناه من الظلم والقهر؟ وها أنا هنا الآن عاجز مقهور محروم من أبسط حقوقي الإنسانية في هذه الزنزانة القذرة بين إخوة لي مصابهم كمصابي، ولكن لا

أدري كيف يستطيعون النوم؟!

لم يظهر أثر قلة الطعام والنّوم عليّ في الأيام الأولى، ولكن فيما بعد بدأت أفقد التركيز قليلاً قليلاً، وسأتحدث عن ذلك لاحقاً.

في جلسة التحقيق الأولى

أخبرني رفاق الزنزانة أنّ جلسة التحقيق الأولى تكون عادة بعد ساعات من الاعتقال، ونصحوني أن أقول في التحقيق كلاماً عامّاً، وأن أنكر التهم التي يوجهونها لي مهما فعلوا بي.

في مساء اليوم الذي اعتقلت فيه – اعتقلت حوالي الثانية بعد الظهر، وأُخذت إلى جلسة التحقيق الأولى في التاسعة أو العاشرة ليلاً تقريباً– جاء العسكري المناوب ونادى على اسمي من فتحة باب الزنزانة، مشيت أمامه، وهو يقودني من الخلف، يدفعني بيده بين الفترة والأخرى، وعندما وصلت إلى غرفة التحقيق أوقفني عند الباب ووضع على عينيّ عصابة سوداء، ثمّ دفعني إلى داخل الممّر الذي مررت به حين دخلت الفرع أوّل مرّة.

أوقفني أمام الطاولة الأولى قرب الحائط عند باب الممرّ من الخارج – رأيت من أسفل العصابة طرف الطاولة– وأظنّ أنّ الذي كان يحقّق معي هو نفسه الذي سألني حين دخلت: ألم يكن لك أخ معتقل عندنا؟ ولا أدري حينها ما الذي دفعه لهذا السؤال؟!

سألني المحقّق عن اسمي واسم والدي وأولادي وعملي، ثمّ قال لي: أنت رجل مثقف ومحترم وكبير في السنّ، ولا نريد أن نعاملك كما نعامل الآخرين، نصيحتي لك أن تقرّ بما كنت تقوم به ضدّ الدولة فتريحنا وتريح نفسك.

قلت له:

– أنا موظف ما زلت على رأس عملي في الدولة، ولا أعرف لمَ اعتقلت.

وكنت قد انقطعت عن عملي منذ خروجنا مشرّدين من حمص، ولكن قرار فصلي من العمل لم يصدر بعد، وكنت ما زلت أحمل بطاقة العمل وأتجوّل بها.

قال: ولمَ كنت تحرّض النّاس على الدولة إذن؟

قلت: ما حرّضت أحداً. أنا خرجت من حمص منذ ثلاث سنين، في يوم ٢٠١٢/٣/١٥ ولم أرجع إليها إلا هذا اليوم، وقد اعتقلتموني قبل أن أدخل إليها.

قال: ولِمَ تركت بلدك وهربت؟

قلت له: لم أهرب، ولكن بعد حصول الفوضى لم نعرف ماذا نفعل، فذهبت إلى أقربائي في دمشق.

لم أجرؤ أن أقول إنّنا خرجنا من بيوتنا هاربين بعد اجتياح الشبّيحة لحيّنا، وتدميرهم لمبنى مؤلّف من خمسة أدوار فيه أكثر من عشرين شقّة سكنيّة، وارتكابهم عدّة مجازر، في الأحياء القريبة من حيّنا، كمجزرة حي كرم الزيتون، ومجزرة حي الرفاعي، ومجزرة العدويّة، وقد استشهد في هذه المجازر التي كانت ترتكب بدافع طائفي محض، عشرات الأشخاص من الأطفال والنساء، والسمة البارزة في هذه الأحياء أنّها كانت أحياء مختلطة، فكان جيران الأمس من (النصيريّة) هم الذين يقتلون جيرانهم من أهل السنّة اليوم.

قال: لِمَ كنت تحرّض النّاس في دمشق على القتل والعنف؟

قلت: لو كنت فعلت لعلمتم بذلك، ولما بقيت إلى الآن خارج السجن.

قال: من يموّلك من الخارج؟

قلت: لا أحد، ولو كان هناك من يموّلني لما تسوّلت أجرة البيت الذي أسكن فيه.

قال: إذن من كان يدفع لك أجرة البيت؟

قلت: زوج ابنتي في الإمارات، يرسل لي مبلغاً بسيطاً كلّ شهر.

قال: إذن كان لك تمويل من الإمارات.

قلت له: هي بضعة آلاف أستلمها عن طريق مكتب رسميّ، هو مكتب السلطان، تستطيعون مراجعة سجلّاته لتعلموا المبالغ التي حصلت عليها.

قال: أنت إنسان متعجرف، تظنّ نفسك شيئاً مهماً، سيادة الرئيس بشار لا يعجبك. قلت: ومن قال؟ بل يعجبني.

قال: فلمَ لم تكن تدعو له في خطبة الجمعة؟

ثمّ تابع: أمامي تقرير من عام ٢٠٠٦ فيه قرار إيقافك عن الخطابة مؤقتاً، لأنّك لم تدعُ بالاسم الصريح لرئيس الجمهوريّة.

عندما رجع بالحديث إلى عام ٢٠٠٦ علمت أن ليس هناك شيء جديد يتحدّث عنه.

قلت: نعم راجعت فرع الأمن في ذلك الوقت، وتعهّدت بالدعاء بالاسم الصريح، وانتهى الموضوع عند هذا.

قال: وفي ٢٠١١ ألم يطلب منك مراجعة فرع الأمن العسكري بسبب الخُطبة التي تحدثت فيها عمّا حصل عند الساعة الجديدة؟

قلت: نعم.

وكان قد حقّق معي المقدم حسين رحمه الله- وهو من درعا، وهو إنسان محترم، وأقول رحمه الله، وأنا أقصدها من كلّ قلبي، فقد رأيت منه ما يدفعني لأن أدعو له، فقد كان في التحقيق في ذلك الوقت يملي عليّ ما ينبغي أن أقوله بطريقة غير مباشرة، وبحضور المساعد الحاقد الذي كان يكتب - وهو من الموالين- فمثلاً قال لي: أنت تنفي جملة وتفصيلاً ما نسب إليك في التقرير. وأنا أقول له: نعم. ولمّا علمت أنّه قتل في الرستن كما قالوا، رجّحت أن شبيحة النظام هم من قتلوه، كما فعلوا مع

كثيرين من أمثاله من الشرفاء.

كاد قلقي أن يزول بعدما رأيت أنّ أسئلة المحقّق كلّها عن الزمن الماضي، ولم يذكر أيّاً من الأمور التي كنت أظنّ أنني اعتقلت بسببها، وخصوصاً عملي في جريدة إميسا، – وكنت رئيس تحريرها، وهي صحيفة معارضة كنّا نطبعها خفية، ونوزّعها في المناطق المحرّرة من حمص وما حولها– حتّى سألني عن ابني عبد الرحمن.

قال: الآن حدثنا أين ذهب ولدُك عبد الرحمن بعد خروجه من حمص القديمة؟

قلت: لا أعرف؟ وقد أدركت أنّ هناك من وشى بأنّ ابني عبدالرحمن كان من المحاصرين في حمص القديمة، قال:

– كيف لا تعرف يا... وشتمني.

وبدأ يرتفع صوته وتقسو كلماته، قلت:

–لا أعرف، آخر مرّة رأيته فيها كانت قبل خروجنا من حمص منذ ثلاث سنين تقريباً، عندما خرجنا إلى دمشق بقي هو ليتفقد البيت، ثمّ وجد نفسه محاصراً في حمص القديمة مع

المحاصرين.

قال: ألم تعلم أنّه التحق بالمسلحين؟

قلت: لا، ولدي لا يمكن أن يحمل سلاحاً، إنّه طالب في الجامعة، ولكنّ الظروف هي التي أوجدته ضمن المحاصرين في حمص.

قال: ألا تتواصل معه؟ قلت: لا. هو يتّصل بأمّه بعض المرّات.

قال: ألم يخبرك أين ذهب بعد خروجه من حمص؟

قلت: إنّه في ريف حمص الشمالي يعمل صائغاً.

قال: أين في الريف الشمالي؟

قلت: لا أعرف؟

كانت الكلمات تخرج من فمي وأنا أجيب عن أسئلته وحدها، فقد ألقى الله عليّ سكينة لم أكن أتوقّعها، علماً أنّ أغلب ما قلته له كان بعيداً عن الحقيقة.

قال وهو ينهي جلسة التحقيق الأولى:

– اذهب وفكّر قليلاً لعلّك تتذكّر، وإلا سيكون حالك في الجلسة القادمة مريعاً.

خرجت وقد انتابتني طمأنينة غريبة، وأنا أقول في نفسي:

- الحمد لله أنّه لم يضربني.

حين وصلت إلى الزنزانة تجمّع حولي رفاق الزنزانة يسألونني:

- هل عرفت تهمتك؟

- ماذا سألوك؟

- كيف سارت الأمور؟

- هل اعترفت بشيء؟

وغير ذلك، حكيت لهم ما حصل غير أنّي أخفيت عنهم شأن ولدي عبد الرحمن، لأنّني لم أطمئن إليهم بعد بشكل كامل.

قال أحدهم: ضربوك؟

قلتُ: لا، ولكن مر بقربي في أثناء التحقيق أحد العناصر، لا أعلم ما وظيفته، ضربني على وجهي، فقال له المحقّق: لالا. فانصرف، وهو يشتمني.

وبدأت اجتهادات رفاق الزنزانة في ماهيّة السبب الذي منعهم من ضربي، قال أحدهم:

- ربّما لكبر سنّك.

ردّ عليه الآخرون: لا علاقة لذلك، فقد كانوا يضربون من هو أكبر منه سنّاً.

قال آخر: ربّما لأنّ تهمته صغيرة.

ردّ عليه بعضهم: وهل هنا من له تهمة أصلاً؟! التُّهم معدّة مسبقاً، والتعذيب والضرب للإهانة والإذلال فقط.

قال آخر: ربّما لأنّ أحداً قد وصّى بك من الخارج.

إشارات استفهام كثيرة أثيرت حول عدم ضربي. قال أحدهم:

– عندك غداً أو بعد غد جلسة ثانية، حماك الله فيها.

جلسة التحقيق الثانية

بعد يومين أحُضرت لجلسة التحقيق الثانية، والتي بدأها المحقّق قائلاً: أرجو أن تكون فكّرت جيداً في مصلحتك، وتذكّرت من كان يموّلك.

وأعاد التهم التي وجّهها لي في الجلسة الأولى، أعدْتُ عليه ما قلته في المرّة الأولى. قال وهو يحاول أن يظهر لي أنّ الأمر هذه المرة مختلف عن الجلسة الأولى:

– الظاهر أنّك لا تفهم بهذه الطريقة.

قلت: هذا ما أعرفه.

قال: سأجعلك تتذكّر كلّ شيء.

ثمّ رفع صوته، وهو يكيل لي الشتائم، ثمّ قال:

– أتظنّ أنّنا لا نعرف أين ولدك؟

قلت: أنا لا أعرف.

قال: تريد أن تقنعني أنّ ابنك لم يتصل بكم منذ أكثر من سنتين!

قلت: بلى، يتّصل بين الفترة والأخرى، وفي كلّ مرّة يتّصل من رقم جديد.

خشيت أن يسألني عن رقمه، قال: ألم يقل لكم أين هو؟!

قلت: يسأل عن حالنا وصحّتنا فقط، وهو لا يخبرنا بشيء، ونحن لا نسأله.

لم تدم الجلسة الثانيّة أكثر من نصف ساعة، وفي طريق عودتي إلى الزنزانة كنت أقول في نفسي: هل يعقل أن ينتهي الأمر عند هذا الحدّ؟ وكنت ما زلت أمنّي نفسي بأنّني سأخرج قريباً.

أخبرني رفاق الزنزانة أنّهم في العادة يكتفون بجلستي تحقيق، ثمّ

يختلف الأمر في بقاء المعتقل هنا، قبل تحويله إلى اللجنة الرباعيّة، فمنهم من يمكث أيّاماً، ومنهم أسابيع ومنهم أشهراً.. ثمّ يجرون له جلسة تحقيق أخيرة، ولما تساءلت عن سبب هذا التفاوت، قالوا:

- إنّهم ينتظرون أن يبادر أحد أقربائه أو معارفه إلى التدخّل فيتمّ الاتّفاق على دفع مبالغ طائلة كرشوة لإخراجه، فإن أُدْرِك المعتقلُ في هذه الفترة، ووجد من يدفع له نجا من تهمة الإرهاب، وتتغيّر نتيجة التحقيق تبعاً لذلك، وربّما أطلق سراحه، وإلا فسيحوّل إلى اللجنة الرباعيّة بعد حوالي شهر إلى أربعين يوماً بتهمة الإرهاب.

جلسة تحقيق خاصّة

في مساء اليوم التالي فوجئت بالجلاد ينادي باسمي، قلت في نفسي: جاء الفرج والحمد لله، فقد أنهيت جلستي التحقيق، وربّما اقتنعوا ببراءتي، وسيطلقون سراحي. ولكن في العادة يقولون لمن يفرج عنه أو ينقلُ إلى مُعتقَلٍ آخر: احملْ معك حاجاتك، ولم يُقل لي ذلك، لم يأخذني الجلاد هذه المرّة إلى

الممرّ، حيث تمّ التحقيق معي المرّتين السابقتين، بل أدخلني من بابٍ من جهة اليمين، علمت فيما بعد أنّها غرفة رئيس قسم التحقيق وهو مقدّم (نصيري) رأيت وجهه بعد ذلك، وكان طويلاً أسمر اللون.

تتوسّط الغرفة في الصدر طاولة كبيرة حولها بعض المقاعد والكراسي، رأيت ذلك من تحت العصابة أولاً، ثمّ رأيتها ثانية من دون عصابة، وسيأتي الحديث عن ذلك، كان المقدّم يجلس خلف الطاولة، لم أر وجهه في المرة الأولى، لكنّني قدّرت عمره في أواسط الثلاثين، كان في الغرفة أشخاص آخرون يجلسون على المقاعد والكراسي، ربّما كانوا ضيوفاً لرئيس قسم التحقيق، فلا ضير في قانون عصابات الأسد أن يحضر الضيوف جلسات التحقيق، جَثَوْت على ركبتي أمام الطاولة كما طلب منّي، وأعاد عليّ المقدّم ما قرّره عليّ المحقّق في المرّتين السابقتين من تهم، وأعدت عليه أقوالي نفسها، ولكنّه ركّز على موضوع ابني، فقال وهو يمثّل الغضب: كيف تكون موجّها تربوياً، ويلتحق ولدك بالمسلّحين، ماذا ربّيت به؟ أعدت إنكاري لمعرفة التحاق ولدي

بالمسلّحين، ثمّ تجرأت فقلت له:

– وعلى فرض ذلك فما ذنبي أنا؟ إن كان هو التحق بالمسلّحين، فلا تزر وازرة وزر أخرى.

فضحك باستهزاء، وهو يقول لي: لو لم تربّه على ذلك ما كان ليفعل. وصرخ وشتمني وهدّدني، ثمّ أمرهم بإعادتي إلى الزنزانة.

زائر الليل

في مساء اليوم التالي – علمت فيما بعد أنّها كانت بعد الساعة الحادية عشر ليلاً تقريباً– وكنت قد أمضيت أربع ليال في الاعتقال، جاء الجلاد ونادى باسمي، انتابني إحساس فرح كما الأمس، وظننت بأنّهم سيفرجون عنّي، فهذه هي المرة الرابعة التي يطلبونني للتحقيق على خلاف المعتاد، كما أخبرني رفاق الزنزانة الذين شاركوني التخمين بأنّهم سيطلقون سراحي، مشيت أمام الجلاد بلباسي الصوفي الداخلي، وقد كنت خلعت ملابسي من شدّة الحرّ بسبب ازدحامنا في الزنزانة مع أنّنا كنّا في أوائل كانون الثاني، وعند وصولنا إلى باب القبو، وضع العصابة على عيني كالعادة، وعند وصولنا إلى باب الغرفة أوقفنا شخص آخر على

الغالب هو مساعد، وقال للعنصر الذي أتى بي مؤنّباً:

-كيف تأتي به هكذا؟ ارجع وألبسه ثيابه، وانزع العصابة عن عينيه. عاد بي العسكري إلى الزنزانة وقال لي:

- بدقيقة واحدة البس ثيابك.

لبست السراويل والسترة والحذاء وأنا أمنّي نفسي، بأنّ وقت الإفراج عنّي قد حان.

مشيت أمام الجلّاد ثانية من غير عصابة هذه المرّة، حتّى أدخلني إلى الغرفة التي دخلت إليها بالأمس، وكنت قد رأيت بعض ما فيها من تحت العصابة، وإذا بمدير أوقاف حمص يجلس على كرسيّ عند طاولة التحقيق التي يجلس عليها المقدّم رئيس قسم التحقيق، قام الرجل عند دخولي وسلّم عليّ، وهو يقول: كيف حالك يا شيخ عبد الكافي؟

قلت: الحمد لله.

ورددت له التحيّة ورحبّت به، وشكرته على حضوره، وقد ظننت أنّني لا محالة خارج من هذا الجحيم، بينما كان المقدّم يراقب ما يجري وهو جالس على كرسيّه.

قال لي مدير الأوقاف: ما هذا الذي اسمعه يا شيخ عبد الكافي؟! لم أصدق أذنيّ، أيعقل أن ولدك مع المسلّحين؟ حين طلبوا منّي التدخل من أجلك لم يقولوا لي ذلك – علمت فيما بعد أنّ أحد الأصدقاء اقترح على زوجتي أم عبد الرحمن أن تتّصل به وأعطاها رقمه– قلت له: لا أعلم أنّ ولدي التحق بالمسلّحين، تركته في البيت في حمص عندما خرجنا هاربين إلى دمشق منذ أكثر من حوالي ثلاث سنين، لا أعرف شيئاً عنه.

قال: أيعقل أنّه لا يتصل بك؟

قلت له: نعم.

قال: ولا على خطّ مضروب؟ – يقصد من خطّ مخالف غير مسجّل– ثمّ أردف:

منذ قليل كنت عند العقيد حسام– يقصد حسام لوقا رئيس الفرع الأمن السياسي– وتحدّثنا أنّه ليس مقبولاً أنّ يقبض موظف راتبه من الدولة، وابنه يقاتل الدولة مع المسلّحين، قلت له:

– على فرض ذلك، ما ذنبي أنا؟! الله تعالى يقول: (ولا تزر

وازرة وزر أخرى)، ولد نوح عليه السلام كان كافراً.

وهنا تدّخل المقدّم قائلاً: هذا ما تحسنونه، ألم تربّه أنت؟

قلت: نعم، ولكنّني أعلم أنّ ولدي لا يمكن أن يحمل سلاحاً، ولدي طالب جامعي.

قال لي مدير الأوقاف: أنا سأعرض عليك أمراً فيه خير لك ولولدك، لقد وعدني العقيد حسام أنّك أن استطعت إقناع ولدك عبد الرحمن بعمل تسوية مع الأمن، فسيطلق سراحك اليوم، وسينام عبد الرحمن عند أمّه.

قلت في نفسي: سبحان الله ما هذا العرض السخي؟! أسلّم ولدي ليقتلوه حتى أنجوَ من الاعتقال، كيف يفكّر هؤلاء؟!

علماً أنّني كنت قد أوصيت ولدي أنّه إنْ حصل يوم واعتقلوني، وأرادوا أن يساوموه على إطلاق سراحي بتسليم نفسه، ألا يفعل ذلك، ولو قطعوني إرْباً إرباً، ولكن قلت في نفسي: أناور قليلاً لعلّي أُعْذر أمامهم، فيطلقون سراحي.

قلت لمدير الأوقاف الذي أخرج علبة سجائر من جيبه، وأشعل واحدة – وقد تعجّبت من ذلك، فالذي أعلمه أنّه ترك التدخين. – قلت له:

– مع قناعتي أنّ ولدي ليس مسلّحاً، غير أنّني لا أعرف رقم تليفونه.

قال: معقول لا رقم عادي ولا مضروب؟

قلت: كان يتّصل بأمّه بين الفترة والأخرى من رقم جديد كلّ مرّة.

قال: اتصلْ بأمّه، وخذ منها آخر رقم اتصلَ به.

نادى المقدّم أحدَ المساعدين وطلب منه أن يجلب لي الهاتف من الأمانات، أتى المساعد بالهاتف بعد قليل، وقد وجدتُها فرصة لأطمئن زوجتي وأولادي عن حالي، وأطمئن عن حالهم. اتّصلت بزوجتي فلم تردّ في المرة الأولى، علمت فيما بعد أنّها خافت، وقد أيقظها رنين التليفون من نومها فزعة، وكانت لم تنم –لا هي ولا الأولاد– منذ ثلاثة أيام، أعدت الاتصال مرّة ثانية، سمعت صوتها وأدركْتُ حالة القلق والخوف التي هي فيها،

قلت مختصراً:

- كيف حالكم؟ الحمد لله أنا بخير.

واغتنمت الفرصة لأطلب منها العودة إلى البيت، وكنت قد طلبت منهم حال اعتقالي أن يأخذوا الأوراق الرسميّة والحاجات الضروريّة، ويغادروا البيت على احتمال أن الأمن ربّما فتّشوا البيت، والآن وقد عرفت أنّ سبب اعتقالي لا يبدو أنّه يستحقّ تفتيش البيت، ثمّ تابعت الكلام ولم أنتظر منها جواباً:

- أنتم عند أهلك أليس كذلك؟ عودي إلى البيت.

نظر إليّ المساعد الذي جلب لي الهاتف مستنكراً خروجي بالحديث عمّا طُلب منّي، ثمّ قلت لها:

- أريد آخر رقم اتّصل به عبد الرحمن.

أنا على يقين أنّ الذهول قد أصابها وهي تسمع هذا، لأنّها تعلم أنّ أرقام عبد الرحمن معي، ولكنّني أكتبها بأسماء أخرى.

صمتت ولم تعرف ماذا تفعل، ثمّ قالت:

-سأتصل بك بعد قليل لأعطيك الرقم، بينما أخرجه من الهاتف.

قالت لي بعد خروجي من المعتقل:

– لم أدرِ عندها ما أفعل؟ رجّحت أن يكون في الأمر لعبة خبيثة من الأمن، استشرتُ عائشة ابنتنا التي استيقظت فزعة أيضاً، فأصابها ما أصابني من الحيرة، فقرّرنا الاتصال بأحد أصدقائك ممّن يعملون في الأوقاف لاستشارته، فأشار علينا بإرساله، وهو يعلم أنّ مدير الأوقاف هناك عندك، فأرسلتُ الرقم الذي يهاتفنا به عبد الرحمن غالباً.

كان مدير الأوقاف ما يزال موجوداً، يراقب مع رئيس قسم التحقيق ما يجري، بينما جلس بقربي أحد المساعدين يراقبني، أنا أعلم أنّ عبد الرحمن على الغالب لن يردّ على اتصالي، وربما أغلق الهاتف، وهذا ما علمته فيما بعد، وقد عرف بنبأ اعتقالي في اليوم الثاني، وكما توقّعت وجدت الخطّ مغلقاً حاولت أكثر من مرّة.

أكّد لي مدير الأوقاف قبل خروجه وهو يطلب منّي معاودة الاتصال: أنّ خروجي مرهون بتسليم ولدي عبد الرحمن لنفسه، وقيامه بتسوية مع الأمن.

بقيت مع المساعد في غرفة التحقيق، أعيد محاولة الاتصال، ولكن حصل معي أمر تدخل فيه لطف الله، ولولاه ربّما كانت ليلتي سوداء، عندما أخذت الرقم من زوجتي كتبته على ورقة خارجيّة أعطانيها مع القلم المساعد، وعندما أنزلته على الهاتف، والرقم موجود أصلاً، ظهر الاسم الذي أحفظه به (الفحل) عند اتصالي، وحمدت الله تعالى أن المساعد لم يلاحظ ذلك، لأنّني قلت لهم:

– إنّني لا أملك أيّاً من أرقامه.

ثمّ مثّلت على المساعد أنّني سأحفظ الرقم، ولم يهدأ قلق نفسي حتّى تمّ الأمر.

مثّلت إعادة المحاولة أكثر من مرّة، ثمّ طلب المساعد من أحد العناصر إعادتي إلى الزنزانة، على أن أعود للمحاولة في وقت آخر.

وانتهى الأمر بعد ذلك حين أرسلوا لي في اليوم التالي لأقوم بمحاولة أخرى، فعلت فيها كما فعلت في المرّة السابقة، قطعت بعدها الأمل بالخروج بمبادرة مدير الأوقاف، وقد هيّأت نفسي

لسجن طويل، وهذا ما أراحني قليلاً من التفكير بإمكانيّة إطلاق سراحي من الفرع قبل تحويلي إلى اللجنة الرباعيّة، ولم يبق ما يشغلني سوى مصير أسرتي، مع أنّني قد اطمأننت عليهم إلى حدّ ما.

مضت حوالي أربعة أيام وكنت قد أرّخت يوم دخولي على حديد الباب الصدئ بقطعة إسمنت نزعتها من الجدار، مضت هذه الأيام وكنت مشغولاً فيها بجلسات التحقيق رغم أنّني لم أتوقف عن متابعة حكاية سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، بعد كلّ صلاة لرفاق الزنزانة، في هذا الوقت أخرج من الزنزانة ذلك الشاب الذي كان من الذين خرجوا من حمص القديمة بتسوية، كما نُقل من الزنزانة الرجل الذي كان بين الخمسين والستين، و كان قد مضى عليه حوالي ثلاثين يوماً في المنفردة، وأتوا باثنين بدلاً عنهما، أحدهما (أبو سليمان) وسأتحدّث عنه لاحقاً، والثاني لبناني بين الثلاثين والأربعين يظهر من لباسه أنّه من أسرة حالتها الماديّة جيّدة، كان يضع شعراً مستعاراً يشبه شعر الممثل ياسر العظمة، اعتقل هو وأخوه معاً، فوضعوا أخاه

في زنزانة أخرى ووضعوه معنا، قال: إنّه اعتقل بتهمة التهريب، وكان قليل الحديث عن هذا الموضوع، وكان شبه متيّقن من خروجه القريب، ولم يصرّح عن طائفته، وقد خشي رفاق الزنزانة أن يكون شيعيّاً، ونقلوا خشيتهم هذه لي عندما خرج للتحقيق، غير أني لم أقتنع بما قالوا. فقد كان يصلي معنا حين نقوم للصلاة، وكان يستمع بشغف لما أتحدّث به من تفاصيل السيرة، وحين أتعب كان يحمل عنّي المهمّة، ويحكي للإخوة ما سمعه من والده – الذي كان يتحدّث عنه باعتزاز، وبدا كأنّه كان شيخ قبيلة بدويّة– من قصص، وكان أسلوبه لطيفاً جذّاباً مشوّقاً، شعرت أنّه أكنّ لي في قلبه احتراماً خاصّاً، وتأكّد هذا لي حين نقلت إلى الجماعيّة التي نقل إليها قبلي بعد أن مكث يومين أو ثلاثة معنا في الانفراديّة رقم أربعة، فعندما دخلت إليها وكان جسمي قد بدأ بالهزال وحالتي الصحيّة انهارت، قام من مكانه الذي هو فيه، وسلّم عليّ بحرارة خفّفت عنّي شيئاً ممّا أنا فيه، بقي معنا بعدها حوالي ستّة أيام، ثمّ خرج بعد أن خرج أخوه قبله بأيّام، وعلى الغالب كما كان يوحي هو بكلامه أنّه

دفع مبلغاً كبيراً، ولم أر عليه آثار التعذيب إلا مرّة واحدة حين عاد ووجهه مليء بالكدمات.

جلسة إهانة

في الليلة الرابعة أو الخامسة وبينما كنت أخاصم عينيّ اللتين أبتا النوم، وأتوسل إليهما أن يأخذا استراحة ساعة، وبعد أن توقّف صراخ المعتقلين ممّا يؤذن بانتهاء جلسات التحقيق في تلك الليلة، وبعد أن عمّ الهدوء المكان، أخرجني أحد الجلادين من الزنزانة، لم يكن مألوفاً أن يساق المعتقلون في مثل هذا الوقت للتحقيق، فاستبشرت خيراً، وقلت ربّما آن يوم إطلاق سراحي، وبعد أن وضع الجلاد العصابة على عينيّ أدخلني إلى غرفة المقدّم، حيث التقيت مدير الأوقاف في المرة السابقة، وطلب منّي أن أجثو على ركبتيّ، وبدأ شخص آخر يجلس خلف الطاولة يسألني وهو يسخر منّي ويستهزئ بي، بوجود الجلاد الذي أتى بي من الزنزانة على غير ما حصل في المرّتين السابقتين، و كان الجلاد يشاركه في ذلك، لاحظت من خلال أصواتهما أنّ أعمارهما صغيرة، وليسا كالمحقّقين السابقين، كانت

أصواتهما توحي بأنّهما في أوائل العشرينات، وكان من الواضح لي أنّهما أتيا بي للإهانة والاستهزاء وليس للتحقيق من طريقة أسئلتهما، وقدّرت أنّهما ربّما يكونانِ من الطلاب الذين درّستهما في يوم من الأيام، وأرادا أن يردّا جميلي على طريقة نظام عصابة الأسد وموالوه، أو ربّما كان لهما علاقة ما بمديريّة التربية حيث كنت أعمل، لأنّهما ذكرا ضمن أسئلتهما أشياء جزئيّة تتعلّق بعملي ولا تخصّ التحقيق، كنت أجيب عن أسئلتهما السخيفة بهدوء وحذر، وكانا يضحكان من كلماتي وإجاباتي ويردّدانها خلفي، استمرّ الأمر حوالي الساعة، ثمّ أعادوني إلى الزنزانة، حيث كان رفاقها ينتظرون عودتي ليعرفوا ما القصة، أخبرتهم بما حصل، فأجمعوا على أنّ هذين العنصرين من المناوبين الليلة، وأرادا أن يتسلّيا بعض الوقت، وربّما كانا يعرفانني سابقاً. ما كان يسلّيني عمّا حصل في هذه الجلسة أنّني بخروجي من الزنزانة أُتيح لي أن استنشق هواء جديداً غير هواء الزنزانة الذي كان يشاركني فيه على قلته أربعة أشخاص أو خمسة.

المساعد أبو أحمد

مضت خمسة أيام تقريباً ولم أكن قد استسغت ما يقدَّم لنا على أنّه طعام، وقد حدثتكم عن نوعه سابقاً، فكنت لا آكل في يومي وليلتي إلا قطعة خبز صغيرة، أُكْرِهُ نفسي على أكلها خشية الضعف والمرض، كما أنّ النوم قد جفاني، مع عدم وجود مكان للنوم أصلاً، فكان ينبغي أن أنام إمّا واقفاً أو قاعداً، وأنا في الحال العاديّة لا أستطيع ذلك، فكيف في هذه الظروف، كما أنّني أعلم من نفسي أنّني لا أنام إذا كنت مشغولاً بشيء، فكيف وأنا في هذا الوضع، بدأت صحتي تتدهور شيئاً فشيئاً، حتّى بتّ أتعب من حديثي لرفاق الزنزانة، وربّما اختلطت عليّ الأمور فانتقل من حديث لآخر بدون انتباه، فينبّهني رفاق الزنزانة إلى ذلك.

قالَ أقدمُ المعتقلين من رفاقِ الزنزانة، والجميع يعرف أنّني لم أنم منذ أيام:

– إذا أتى مساعد الطبيّة (أبو أحمد) اطلبْ منه حبّة تحسّس لعلّك تنام.

قلت: وهل يعطون المعتقلين أدوية؟

قال: بعض الأدوية للأمراض المزمنة: كالسكر والضغط وغيرها، بحسب المزاج، لمن يملك ثمنها في الأمانات، وبسعر مضاعف، في العادة يأتي سجين من السخرة بعد العاشرة ليلاً، يمرّ على الزنزانات، فيسأل عمّن يريد دواء من المعتقلين، فيمدّ المعتقل يده من فتحة الباب (الشرّاقة) ثمّ يخرجونهم بعد ذلك واحداً واحداً.

في تلك الليلة خرجت إلى المساعد (أبو أحمد) وكانت فرصة أيضاً كي أتنفّس هواء أقلّ تلوّثاً من هواء الزنزانة، مشيت خلف السجين السخرة – تعرّفت عليه فيما بعد في الجماعيّة، كان شاويش الزنزانة واسمه أبو ناصر– حتّى وصلنا إلى آخر الممرّ، حيث يجلس المساعد أبو أحمد، وهو رجل بين الثلاثين والأربعين، من الواضح أنّه كان يهتمّ كثيراً بمظهره، فهو يلبس ثياباً عسكريّة كاملة، (بدلة مموّهة) نظيفة وأنيقة ومكويّة، مع جزمة عسكريّة نظيفة، وقد حلق لحيته، وكأنّه ذاهب للاجتماع الصباحيّ– كما كنّا نفعل في مدرسة المشاة عندما كنّا طلاب

ضباط- كان يضع أمامه حقيبة سفر متوسطة الحجم فيها مجموعة أدوية. قال:

- ماذا تريد؟

قلت: أريد حبّة تحسّس.

فقال من غير أن ينظر إلي: انقلع، لا يوجد عندي.

عدت خائباً من محاولتي الأولى، ولكنّني لم أيئَس، فخرجت مرّة ثانية عندما جاء بعد يومين، وطلبت الطلب نفسه.

قال: هل تملك مالاً في الأمانات؟

قلت: نعم.

قال: ما اسمك؟

فسجّل اسمي، ثمّ أعطاني حبّة، وهو يقول:

- خذ هذه مؤقّتاً، وسآتيك بعلبة في المرّة القادمة.

في تلك الليلة أحسست أنّني غفوت أوّل مرّة منذ اعتقالي، لا أدري سبب نومي ربّما كان حالة نفسيّة؛ لأنّني أوهمت نفسي أنّ هذه الحبّة تساعد على النوم. ولم أعرف كيف نمت واقفاً؟ أم قاعداً؟ أم مستلقياً؟ المهمّ أنّني صحوت وأنا أشعر بالرّاحة قليلاً،

وقد خفّ ألم رأسي.

قلت لرفاق الزنزانة حين يأتي أبو أحمد في المرّة القادمة سأطلب منه شامبو وصابون، وكنت قد بدأت أشعر بانتشار القمل في ثيابي.

غسيل الثياب

ذكرت سابقاً أنّه لم يكن في الزنزانة لا شامبو ولا صابون، فكان من يريد أن يغسل ثيابه، يضعها تحت الماء حين يزورنا بين الفترة والأخرى، ويفركها قليلاً بيديه، ثمّ يعصرها، ويربطها بطرف حبل مصنوع من قماش قميص قديم يتدلى من فتحة باب الزنزانة (الشرّاقة) إلى خارجها – وجده رفاق الزنزانة مربوطاً هكذا- وفي إحدى المرّات غسلت قميصي وربطته بالحبل ثمّ دليّته من (الشرّاقة) إلى خارج الزنزانة، وبعد قليل سحبته إلى الداخل لأرى هل جفّ أم لا، فوقع من يدي خارجاً، وانتظرت حتّى جاء وقت الطعام فجلست قرب الباب بحجّة أنّني سآخذ الطعام من السخرة، فمددت يدي بسرعة وأخذته وقد اتّسخ أكثر ممّا كان عليه قبل الغسيل، فغسلته

ثانية.

عندما جاء المساعد (أبو أحمد) هذه المرّة خرجت بتشجيع من رفاق الزنزانة لآخذ حبّتي، وأطلب منه شامبو (سنان)، من أجل القمل، وصابوناً لنغسل أيدينا، وجدت المساعد (أبا أحمد) كالعادة يجلس وأمامه حقيبة الأدوية، قال لي:

– ما اسمك؟

ذكرتُ له اسمي، قال: خذ من العلبة التي كتب عليها اسمك حبّة.

نظرت في الأدوية فإذا بعضها مكتوب عليه اسم صاحبها، فأخذت حبّة وقلت: نريد شامبو سنان وصابوناً.

فقال لي: انقلع، عندما يأتينا نوزّع عليكم.

في هذه المرّة خرج معي أحد رفاق الزنزانة يريد حبّة تحسّس، وقد شجّعه أنّني حصلت عليها، فطرده أبو أحمد بعد أن علم أنّه لا يملك مالاً في الأمانات.

كانت هذه الدقائق التي لا تتجاوز الخمس، والتي أخرج بها من الزنزانة إلى المساعد أبي أحمد فرصة عظيمة لأتنفّس هواء أقل

تلوّثاً من هواء الزنزانة، بالإضافة إلى أنّ فيها تغييراً لروتين الزنزانة اليوميّ، علماً أنّها كانت في كلّ يومين مرّة، ومع أنّ الحبّة لم يعد لها عليّ أيّ تأثير، بعد المرّة الأولى والثانية، ولم أذكر أنّني نمت فترة وجودي في المنفردة بعدها، ولكنّني بقيت أخرج لآخذ الحبّة وأعطيها لمن يريد من رفاق الزنزانة.

بدأت أشعر أنّ القمل بدأ يزداد في ثيابي، وبدأت أتحسّس من وجوده، وأنا أرى رفاق الزنزانة الذين سبقوني في الزنزانة يقضون جلّ وقتهم وهم ينظفون ثيابهم منه، عندما حاولت ذلك اكتشفت أنّني لا أستطيع رؤية القمل بدون نظّارتي، وخصوصاً في هذه الإضاءة الخافتة، وهي عبارة عن مصباح توفير كهربائي صغير ٦٠ شمعة موضوع في تجويف أعلى الجدار قرب السقف، وقد نسجت عليه العناكب خيوطها فخفّفت من إضاءته، عندما استنكرت أمام رفاق الزنزانة ضعف هذه الإضاءة، قال لي أقدمهم:

– احمد الله، عندما فسد المصباح السابق بقينا عشرة أيام في الظلام الدامس من غير إضاءة، يأتينا في النهار شعاع ضوء

صغير لا نكاد نرى فيها بعضنا، وأمّا في الليل فالظلام دامس.
قلت وماذا فعلتم:
– قال بقينا نرجوهم ونستجديهم، حتّى كدنا نقبّل أقدامهم ليأتونا
بمصباح جديد، وبعد عشرة أيام من التذلّل والاستجداء، أخذوا واحداً منّا ليفكّ مصباحاً من الممرّ ثمّ وضعه بدل الفاسد، وهو هذا الذي تراه.
يا الله كم ضاق صدري حين تخيّلت تلك الأيام العشرة التي مرّت عليهم بدون ضوء.
خرجت إلى المساعد أبي أحمد عندما جاء في ميعاده، وبعد أن أخذت الحبّة، قلت له: لو سمحت أريد نظّارتي من الأمانات، فأنا لا أرى بدونها، وقد أتعبني القمل. قال لي: انقلع، لا علاقة لي بهذا الأمر.

أبو سليمان

رفيقي في الزنزانة الانفراديّة رقم ٤ طيلة سبعة أيام، شاب في أوائل الثلاثينيّات، أسمر نحيل الجسم، مع أنّه كان يأكل كلّ ما

يقدّم لنا على أنّه طعام – بخلافي لأنّني لم أستطع أن أستسيغ الخبز المحْمِّضّ ولا عجينة الرزّ أو البرغل التي تقدّم لنا– كنت أتعجّب في نفسي، أقول كيف يستطيع أكل هذا؟، كان يأكل كلّ ما يبقى من طعام ثمّ يلتف على نفسه متكوّراً بطبقات ثلاثة ثمّ يغط في النوم في مساحة تزيد على ٤٠×٤٠سم قليلاً، كنت أغبطه على قدرته على النوم، وكان النوم قد جفاني منذ أيّام كما أسلفت.

كان أبو سليمان قليل الكلام، جاؤوا به إلى الانفراديّة بعدي بثلاثة أيام، وكالعادة عندما يدخل معتقل جديد وبعد الأسئلة المعتادة كم الساعة؟ هل الشمس طالعة؟ هل أذّن الظهر؟ ماذا يحصل في الخارج؟ كان كلّ واحد من المعتقلين يمنّي نفسه بتغيّر الأحوال، وقرب وصول الثوار إلى الفرع لتخليصنا من هذا الجحيم الذي نحن فيه.

بعد هذه الأسئلة كلّها، كان يأتي السؤال الأهمّ: لماذا اعتقلوك؟ قال أبو سليمان: هذه هي المرّة الثانية التي أعتقل فيها، السنة الماضية بقيت ثلاثة أشهر، دُرت فيها على فروع الأمن كلّها في

حمص، بعد أن اعتقلت على أحد الحواجز، ثمّ أطلقوا سراحي، واليوم بينما كنت عائداً من عملي إلى بيت أختي في الدبلان — فهمت أنّها تسكن في مكتب في أحد البنايات بعد أن هجّرت من بيتها في البياضة — وقد نزلتُ ضيفاً عندها فترة مؤقتة ريثما أجد مسكناً يؤويني بعد أن طُردت من البيت الذي كنت أسكن فيه، فوجئت بلجنة الإحصاء الذين جاؤوا إلى المبنى يطالبونني بالموافقات الرسميّة على سكني، فقلت لهم:

– إنّني ضيف عند أختي مؤقتاً، وقد أخبرت عناصر الحاجز بذلك.

فلم يأبهوا لكلامي، واتصلوا بالفرع الذي أرسل دوريّة فجلبوني إلى هنا.

كان أبو سليمان يعمل كلّ شيء، كان يقال لمثله أنّه يعمل (بالفاعل) أيّ يعمل ما يحتاجه الزبون؛ يحمل نحاتة ورملاً وخفّاناً، ويحفر ويردم ويهدم جدراناً، ولا يتوانى عن عمل أيّ شيء يحتاج إلى جهد عضليّ، أراني ظهره وقد أثّر حمل الحجارة فيه حتّى سحج جلده، فذهبت طبقة الجلد نتيجة الاحتكاك

بالأجسام الصلبة كالحجارة والحديد. وكان الوحوش في حفلة التعذيب يكثرون ضربه على مكان السحج.

كان أبو سليمان يشتري بما يكسبه من مال قليل ما يسدّ به رمق أسرته، المؤلّفة من زوجة وبنتين، ويدّخر شيئاً قليلاً لليوم الذي لا يجد فيه عمل.

عندما قمنا إلى الصلاة – وكنّا نصلي جماعة في المنفردة، بحسب الموجودين، خمسة أو ستة أو سبعة، مع أنّ صلاتنا في جماعة فيها مجازفة كبيرة– لم يقم أبو سليمان إلى الصلاة، فلما كان فجر اليوم الثاني، وبعد أن صلينا الفجر– كان من معي يسمعون الأذان بعض المرّات وفي باقي الحالات نقدّر الأوقات تقديراً، ولم أكن أسمع الأذان لضعف سمعي قليلاً، وكانت أمنيتي أن أسمع الأذان مرّة واحدة، ولم أسمعه حتّى انتقلت إلى الجماعيّة. ولم يكن هذا حالي قبل الاعتقال فلم أذكر أنّني شكوت من سمعي يوماً، وقد رجّحت أنّ سبب هذا الضعف المفاجئ هو الارتفاع الدائم في ضغط الدم الذي لازمني بعد الاعتقال.

بعد أن عاد الشباب إلى النوم وجدت الفرصة مناسبة لأسأل أبا سليمان، وقد بقي مستيقظاً؛ لأنّه ينام مبكّراً، قلت:

ما رأيتك تقوم إلى الصلاة يا أبا سليمان، أسرع في الإجابة:

– أنا لا أصلّي.

قلت له: لمَ لا تصلّي؟

قال: لا أعرف كيف أصلي.

تعجّبت في نفسي، رجل في هذا العمر، ويعيش في بلد مسلم ولا يعرف كيف يصلي؟ كيف وصلنا إلى هذا؟ من المقصّر الأهل أم المدرسة أم العلماء أم الجميع أم هي سياسة مقصودة ومخطط لها لإبعاد النّاس عن دينهم؛ ليسهل بعد ذلك توجيههم واستعبادهم.

قلت في نفسي: الحمد لله أتاني عمل.

قلت له: أنا أعلّمك، هل تحفظ الفاتحة؟

قال: ليس كثيراً.

قلت له: اقرأها.

فلمّا قرأها، وجدته لا يحفظ منها إلا التسمية والحمدلة، فقلت

له:

– ما رأيك أن أعلّمك قراءة الفاتحة أولاً؟، وتصلّي معنا وتفعل كما نفعل. وبقينا على ذلك أياماً، حتّى حفظ الفاتحة وسورة الإخلاص والكوثر والعصر.

عاد أبو سليمان من حفلة التعذيب الأولى وقد تورّمت قدماه، طلب منه رفاق الزنزانة أن يبقى واقفاً ويحرّك رجليه، فقال وهو يضع رجلاً ويرفع أخرى، قال ذلك بطريقة المتحدّي:

– يريدون مني أن أعترف بأنّني كنت مع المسلّحين، وأنّني هاجمت الحواجز، وأنّني قتلت وخطفت واغتصبت، ولكنّني لن أفعل مهما فعلوا بي.

في اليوم الثاني وبعد حفلة التعذيب الثانية عاد أبو سليمان وهو يضع يده على وجهه منكسراً وكأنّما نسي ألم رجليه، قال وهو ينظر إلى الأرض:

– لقد قلت لهم ما يريدون.

تحلّق الجميع حوله، قال أحدهم:

– ماذا قلت؟

– قلت لهم أنّني شاركت بالهجوم على الحواجز، وقتلت وفعلت كلّ ما طلبوا منّي أن أعترف به، لم أستطع التحمّل، ضربوني بأحذيتهم على وجهي، قال ذلك وهو يشير لأحد رفاق الزنزانة أن ينظر إلى أحد جانبي وجهه:

– هل هناك ورم؟

قال: نعم قليلاً عند الأذن إلى الأسفل.

بقي أبو سليمان أياماً وهو يتألّم، بينما كان الورم يزداد قرب أذنه، قلت له:

– غداً عندما يأتي مساعد الطبيّة أبو أحمد اخرج إليه، قال أبو سليمان: ليس معي إلا (٧٠٠) ليرة في الأمانات، قلت له:

– تكفي لشراء مضادّ حيويّ (حبّ التهاب).

قال: لا أريد، إنّي أحتفظ بها لأشتري للبنات حين خروجي هديّة صغيرة، أو (كيلوين) موز، يفرحون بذلك.

قلت في نفسي: سبحان الله، متعجّباً من حال أبي سليمان هذا، فهو أوّلاً يأمل الخروج من هنا، مع أنّه اعترف بما اعترف به. وثانياً إيثاره بناته على نفسه، حتّى في أمر يتعلّق بدواء ألم لا

يفارقه ليل نهار. فقلت وقد شجعني حاله هذا على أن أجازف بجزء ممّا أملكه في الأمانات:

– إذا خرجت إلى مساعد الطبيّة قل له أن يأخذ ثمن الدواء ممّا لي في الأمانات، وكنت الوحيد من رفاق الزنزانة الذي يملك مالاً في الأمانات.

عندما جاء أبو أحمد خرج معي أبو سليمان وطلب الدواء، وقلت له: أنا أدفع ثمنه عنه. فأعطاه حبّة مضاد حيويّ وقتها. على أن يعطيَه كلّ يوم حبّة.

غادرت المنفردة بعد ذلك، وتركت أبا سليمان فيها، ولم التقِ به بعد ذلك إلا في الرباعيّة، ثمّ التقيت به ثالث مرّة في السيّارة التي نقلتنا إلى سجن عدرا بعد شهر تقريباً، وخرجت من السجن، وعلى الغالب بقي هو هناك.

مضت سبعة أيام في المنفردة، ولم أستطع إلى ذلك الوقت إكراه نفسي على أكل ما يقدّم لنا على أنّه طعام، كنت آكل لقيمات قليلة، آكلها وأقنع نفسي أنّني أفعل ذلك كأنّني أشرب دواء، ومثلُ الطعامِ النومُ، فما زال يجافيني غير بعض دقائق

أغفوها، ولا أعرف كيف؟ ربّما من شدّة التعب. ينام رفاق الزنزانة وأبقى وحدي أفكّر وأسبّح وأستغفر، تمرّ عليّ لحظات أشعر بضيق في صدري، حتّى كأنّني لا أستطيع التنفس، فأقف عند باب الزنزانة وأقترب من الشرّاقة أحاول استنشاق هواء أقلّ تلوثاً، وأدعو الله تعالى، وأدعو حتّى أشعر بالراحة وبذهاب ذلك الضيق.

في إحدى الليالي فتح السجّان باب الزنزانة ودفع إليها رجلاً في أواسط الستّينات، طبعاً كحال باقي المعتقلين، دخل عارياً وثيابه في يده، وقف قليلاً عند باب الزنزانة كأنّه غير مصدّق ما يحصل، منذ وقعت عيني عليه عرفته، ولكن تركته قليلاً ريثما يعرفني هو أيضاً، لبس ثيابه وهو يقول:

– يقيناً هناك خطأ ما.

بعد أن هدأت نفسه قليلاً قلت له:

– أهلاً فلان، ألم تعرفني؟

نظر إليّ وهو يقول: لا.

فقلت: ألست فلاناً؟ مدرّس اللغة العربيّة في تلدو في الحولة؟،

ألا تعرف مدرّس التربية الإسلاميّة الحمصيّ الذي كان يدرّس عندكم أواخر الثمانينات؟

قال: نعم عرفتك فلان.

وأعاد سلامه عليّ بحرارة أكثر، وبينما كان يحدّثنا عن كيفيّة اعتقاله، جاء أحد السجانين وكلّمه من النافذة:

– ألست فلاناً؟ الذي يلقبونه كذا؟

وهنا رفع صوته فرحاً: لا ذاك اسمُهُ على اسمي، ولكنّه يعمل فرّاناً، أنا مدرّس متقاعد، ألم أقلْ لكم إنّ في الأمر خطأ ما!!

قال له السجّان: اخرس ليس هناك خطأ. ثمّ انصرف.

ملخّص قصّته أنّه نزل هو وابنتاه من قريته، وسكن حمص في حيّ الشمّاس، قرب الجامعة ريثما قدّمت ابنتاه امتحان الثانويّة، وبعد المفاضلة، قُبِلَت إحداهما (أو الاثنتان ربّما) في معهد في مدينة الرقّة، وداومت عاماً دراسيّاً كاملاً، وبعد أن تحرّرت الرقّة، ثمّ استولى عليها تنظيم الدولة (داعش) أراد أن يذهب إلى الرقّة ليحضر ثبوتيّات بذلك لينقل ابنته إلى حمص، فاعتقلوه قبل انطلاق الحافلة، وأتوا به إلى ههنا، ولا يعرف لماذا؟ سألته عن

كثير ممن كانوا معنا أيّام المدرسة، فجعل يقول هذا هرب إلى لبنان، وهذا معتقل، وهذا قُتل، وهذا بقي في القرية وهو مع الثوّار، كان منفعلاً ومتضايقاً من كلّ شيء، ما انقطع عن الكلام والتألّم والتحسّر، منذ دخوله، وهو يقول: ليتني فعلت، وليتني لم أفعل، أنا مريض، وأحتاج إلى دواء كذا، ودواء كذا، ابنتاي وحدهما في البيت، وهما لا تعرفان أين أنا.

وقضى جزءاً من ليلته وهو يقف عند الشرّاقة يدعو ويطيل الدعاء. غير أنّني تعجبت كيف استطاع إكراه نفسه على الطعام، علماً بأنّه قال في أوّل الأمر: إنّ نفسه لا ترغب به. ولكن عندما قال له رفاق الزنزانة:

– ليس هناك طعام آخر إلى اليوم الثاني.

أكل كواحد منهم، كما أنّه استطاع النوم ولو قليلاً، مكث تلك الليلة معنا، ثمّ بقي حتّى منتصف النّهار ثمّ أخرجوه، ولم أره بعدها.

ليلة أليمة

في الليلة السابعة أو الثامنة اخترق الصمت المطبق على السجن

– الذي كان يقطعه بين الحين والآخر صوت صرير أبواب بعض الزنزانات عندما تفتح إيذاناً ببدء حفلة تعذيب لأحد المعتقلين– بكاء أطفال صغار ربّما في الثالثة أو الرابعة.

أصوات صغيرة في هذا الجوّ الرهيب، أسرع أحد الإخوة إلى (الشرّاقة) ليحاول معرفة الأمر، بدأ صراخ الطفلين يقترب يرافقه صوت امرأة في الثلاثينات مع حركة أحد الزبانية، أبعد الأخ – الذي كان يحاول رصد ما يجري– وجهه حين اقترب الصوت من باب الزنزانة، ثمّ تابع مهمته بعد ابتعاده، سمعنا صوت فتح باب الزنزانة رقم (٧) – خُصّصت المنفردتان الأخيرتان (٦و٧) للمعتقلات– كانت قلوبنا تكاد تتقطّع ونحن نسمع بكاء الصغيرين المستمرّ.

ألم أكن أتوّر أن تصل وحشيّتهم وإجرامهم إلى هذا الحدّ، أيعتقلون الأطفال مع أمهاتهم، كنت قد قرأت عن مثل هذه الحالات في بعض الصحف، وكنت أظنّها حالات شاذّة، أو أخباراً مبالغاً بها حتّى رأيت ذلك بعيني.

حوالي منتصف الليل –كما قدّرنا – سمعنا صرير باب الزنزانة

السابعة يفتح، وجلبة أصوات تخرج منها، بدأت خيوط فرح تدخل إلى قلوبنا، وقد ظننا أنّه سيفرج عن هذه المسكينة وولديها، ولكنّها عادت بعد دقائق دون ولديها، وبدأت التخمينات ليستقر الرأي على أنّهم ربما اتصلوا ببعض أقاربها فأخذوا الطفلين.

مضى على ذلك ساعة أو ساعتان- كنّا نقدّر الوقت تقديراً- ليأتي أحد زبانية الشبّيحة ليصحب المرأة، ونحن نسمع همهمة أصوات ولا ندري معناها، ولكن ما فهمه (الراصد) أنّها اعتقلت لأنّ زوجها كان مطلوباً، وهي تحلف الأيمان المغلّظة، بأنّها لم تره منذ سنتين، غابت حوالي الساعة لنسمع بعدها بكاءً هستيرياً يرافقه صراخ ونشيج تحسّ فيه الانكسار، لا يمكن لبشر فيه ذرّة إنسانيّة إلا أن ينخلع قلبه حين يسمعه، كان أحد المعتقلين من الشباب، وكنّا في الزنزانة ستّة معتقلين تلك الليلة، يضرب الجدار برأسه، ونحن نحاول منعه، وهو يصرخ: يا الله. ثمّ يجلس ليبكي على عجزنا وهواننا وقلّة حيلتنا.

لا ندري ما فعلوا بها، ولم يجرؤ أحد على التخمين، لقد كان

تصوّر ما يمكن أن يكونوا قد فعلوه بها أعظم من أن يدخل في مجال تخميننا.

بقينا خمسة أو ستة أيام نسمع صوت ذهابها وإيابها، ثمّ نقلتُ إلى الزنزانة الجماعيّة، ولا أعرف ما حصل لها بعد ذلك.

البدوي

في أحد الصباحات فتح باب الزنزانة ودفع فيها شاب عمره سبعة عشر عاماً، أسمر نحيفاً، يُعرف من رائحة ثيابه أنّه قد جُلب من مكان عمله، وكان من البدو الذين يعملون بتربية الأغنام، قال إنّه اعتقل مع أبيه وإخوته وأولاد عمّه، وهم سبعة أشخاص، رأيت والده وابن عمّه المصاب بعد ذلك في الجماعيّة.

وابن عمّه هذا أصيب إصابة بالغة، بينما كان يقاتل الثوّار مع جيش النظام قرب درعا، وكان مجنداً عندما قامت الثورة ولم ينشقّ، ومع ذلك اعتقلوه مع الباقين رغم إصابته البليغة، وسبب اعتقالهم كما قال: وشاية أحد أقربائه عند الأمن بأنّ عندهم بندقيّة في الحوش، وكانوا يسكنون قرب بلدة شنشار،

ومعروف أنّه لا يخلو بيت من بيوت البدو الذين يربّون الأغنام من بندقيّة، وذلك عادة عندهم، ربّما يكون سببها ضرورة حماية أنفسهم وأغنامهم، لأنّ طبيعة عملهم تتطلّب التجوال في البراري، وهذا أمر يعرفه الجميع، وتراه أجهزة الأمن ولا تعترض عليه، وإذا حصلت شكاية يأخذ عناصر دوريّة الأمن رشوة (المعلوم) وينصرفون.

من طرائف ما حصل معه، أنّه سمع صوت أخيه في المنفردة التي تلينا، وهي المنفردة رقم (٥) فجعل يتحيّن الفرص حين غياب السجّان أو ابتعاده ليقف على الشرّاقة وينادي باسم أخيه، فعل ذلك أكثر من مرّة حتّى سمعه أخوه، فكان يتحدّث مع أخيه بالهمس من خلال الشرّاقة، وكنت أتعجّب كيف يسمعان بعضهما، وكنت أسمع همهمتهما من غير أن أفهم ما يقولان، ووقد أرجعت سبب رهافة سمعهما إلى صفاء حياة البراري التي كانا يعيشانها.

كان كلّما أراد أن يحدّث أخاه طرق على الحائط فيعلم أخوه ذلك فيقترب من الشرّاقة، لم يحدث فترة وجودي في الزنزانة أن

اكتشف السجّانون هذا، وهو متوقّع في أيّة لحظة، ومع ذلك كانا يجازفان بالحديث، ولكن أُخبرت بعد خروجي إلى الجماعيّة أنهم اكتشفوا ذلك، وقد ضُرب هذا الشاب ضرباً شديداً بسبب ذلك، ونقل من الزنزانة، حين رأيته بعدها لم تكن بعد آثار حفلة التعذيب قد غادرت عينيه المتورّمتين.

كنت أتجاذب معه أطراف الحديث، وأكثر من سؤاله عن طبيعة حياتهم؟ وعن تربية الغنم، وكيفيّة إطعامها ورعايتها؟، وكان من أطرف ما أخبرني به، هو كيف كانوا يحاولون أن تحمل الشاة بتوءَم بطريقة بدائيّة متوارثة. كان مشغولاً على حال القطيع بعد اعتقال جميع الرجال، بحيث لم يبق في الحوش إلا النساء والأطفال، ولا يستطيعون القيام برعايتها، وخصوصاً أنّها في موسم الولادة، كان ذلك في شهر كانون الثاني. وهي ٢٠٠ رأس، وهو قطيع كبير بمعيار أصحاب الغنم، كان يتحدّث عن ذلك ويتوعّد ذلك القريب الذي وشى بهم عند الأمن، يقول يظنّ أنّنا لم نعرفه، لأنّه عندما أتى مع عناصر الأمن كان يغطّي وجهه، ولكنّنا عرفناه، وسيعلم ما سنفعل به بعد خروجنا.

رأيت والده بعد ذلك في الجماعيّة، كان رجلاً كبيراً في السنّ، لطيفاً، حدّثني عن قصة اعتقالهم فكانت كما أخبرني ولده، أحبّني ووثق بي، وكان يظنّ أنّي سأخرج قريباً، فحاول تحفيظي رقم هاتفه لأتّصل بزوجته وأوصيها أن تبيع بعض الغنم، وتعطيه لشيخ من شيوخ الأعراب يسكن حمص، من الموالين للنظام رشوة ليتدخّل في إطلاق سراحهم، أو سراح بعضهم، مع أنّه من قبيلة أخرى غير قبيلتهم. ومن طرائف قصة اعتقال هذه الأسرة، أنّ واحداً من أولاده المعتقلين كان يعمل في الإمارات، وكان قد نزل إلى سوريّة لزيارتهم قبل يومين فقط فاعتقله الأمن معهم، وقد عرفت أنّ هذا الولد أطلق سراحه بعد أيام بعد أن دفع رشوة كبيرة.

وكم كنت أتألم لحال ولد أخيه المصاب، الذي كان معنا في الجماعيّة، كانت أصابته في فخذه من الجهة الوحشيّة، وكان نحيلاً، وكان جرحه غائراً عميقاً، وكان يحتاج إلى عناية طبيّة في مشفى، كانوا يعطونه بعض الشاش والقطن وربّما مع مرهم يضعه على الجرح ويلفّ عليه الشاش. راقبت يوماً جرحه عندما

كان يقوم عمّه بتغيير العُصابة عن جرحه، فخيّل إليّ أنّ الإنسان لو أدخل أصابعه الأربعة في جرحه لدخلت. نقلت بعد ذلك إلى الرباعيّة ولم أعرف ما حصل معهم.

أبو ممدوح

قبل خروجي من المنفردة بيومين أو ثلاثة جاءنا معتقل جديد، شاب في أواخر العشرينات من عائلة معروفة في حمص، من أهل المروءة والنخوة، اعتقل في حيّ المخيم في حمص، وكان يسكن هناك مع زوجته الفلسطينيّة، وله مطعم صغير يبيع فيه اللّحم، كان له ثلاث بنات، لا يفتأ يذكرهنّ ويتألّم على فراقهنّ، يمازح من في الزنزانة وخصوصاً أبي سليمان، يسرّي عن نفسه وعمّن في الزنزانة، وملخّص قصّته أنّ بعض الشبّيحة أخبروه أنّه مطلوب للأمن، وأنّ عليه أن يقوم بتسوية، مع أنّه لم يشارك بأيّ نشاط ثوريّ ظاهر، وكان مطلوباً منه في التسوية أن يسلّم بندقيّة، ويكتب تعهداً بعدم القيام بأيّ نشاط ثوريّ، فاضطرّ إلى شراء بندقيّة بأكثر من ١٥٠ ألف ليرة، وكتب تعهّداً، وبقي في محلّه في المخيم بعدها أشهراً، ليفاجئ بعد ذلك بدوريّة أمن

تعتقله، وتأتي به إلى هنا. عندما كنّت في كان هو من يرصد لنا الحركة خارج الزنزانة لطوله ولوقوفه قرب (الشرّاقة) طوال الوقت لإحساسه بضيق صدره، كما أنّه كان مثلي لا يستطيع النوم، وكان يظنّ أنّه سيخرج بين ليلة وضحاها، وهو الذي كاد أن يشجّ رأسه في قصّة اعتقال تلك المرأة التي تحدّثت عنها سابقاً، ثمّ جلس يبكي، وهو يقول: يا الله يا الله.

تركته في المنفردة حين خرجت ولم أره بعدها، أُطلق سراحه بعد حوالي سبعة أشهر بعد أن دفع رشوة كبيرة، ثمّ هاجر إلى تركيّا، ومن طريف ما حصل أنني كتبت قصّة اعتقال تلك المرأة على صفحتي الشخصيّة بـ (الفيس بوك) فإذا بشخص يتّصل بي على الخاص يخبرني أنّه هو الشخص الذي كان يرصد لنا ما يحدث خارج الزنزانة، وسألته فأخبرني عن القصّة فعلمت أنّه أبو ممدوح.

الانتقال إلى الجماعيّة

بدأ القمل ينتشر بشكل كبير في ثيابي بعد حوالي سبعة أو ثمانية أيّام، فكانت مصيبتي مضاعفة بالنسبة لرفاق الزنزانة المنفردة،

لأنّني لا أستطيع رؤية القمل من دون نظّارة، والنظّارة في الأمانات، وقد رفضوا إعطائي إيّاها كما أسلفت، فكيف أنظف ثيابي منه! بالإضافة إلى أنّه لا يوجد صابون أو شامبو سنان لأغتسل أو أغسل ثيابي، وقد طلبت من المساعد أبي أحمد أن يحضر لنا صابوناً وشامبو فطردني، ولكن مع اشتداد أذى القمل، وقد بدأ الجرب ينتشر على جسم بعض رفاق الزنزانة، فكنت كلّما خرجت لآخذ الحبّة- وقد جعلتها ذريعة لأخرج حين يأتي المساعد أبو أحمد، علماً بأنّني لم أشربها إلا مرّتين فقط، وكنت أعطيها لمن يحبّ من رفاق الزنزانة- كنت أرجو المساعد أبا أحمد أن يحضر لي نظّارتي من الأمانات، وأن يحضر لنا شامبو سنان لمعالجة القمل، وصابوناً لغسل اليدين، مع علمي المسبق بأنّه سيوجه لي بعض الشتائم.

في الليلة الثامنة في المنفردة وبينما كنت مستيقظاً كالعادة، ومعي أبو ممدوح بينما نام الجميع وكنّا يومها ستة، أحسست بضيق نفس شديد في التنفس، مع وخزة في جانب صدري الأيسر، وكالعادة وقفت قرب الشرّاقة علّني أستنشق هواء أقلّ تلوثاً،

وقفت حتّى تعبت، ومع ذلك لم يذهب عنّي ضيق التنفس، ولا وخزة الصدر، أخذ أبو ممدوح سترته وجعل يلوح بها في الهواء أمامي يحاول تحريك الهواء، بقي دقائق وهو يفعل ذلك، ثمّ أعاد الكرّة، أحسست بقليل من الراحة، لكن ما إن توقف حتّى عاد الأمر كما كان، أحسست أنّني أكاد أختنق، وقلت في نفسي ربّما هي أعراض ذبحة صدريّة، وما دام الأمر كذلك فسيّان عندي ما سيحصل، وبدأت أطرق على باب الزنزانة طرقاً خفيفاً لعلّ السجّان يسمع فيأتي، فلم يأتِ أحد، فأخذت أقرع بقوّة أكثر، فلم يأت أحد، وقرعت بكلّ ما أوتيت من قوّة أكثر من خمس دقائق، وربّما أيقظت من في الفرع كلّهم – وعندما انتقلت إلى الجماعيّة بعد ذلك سألوني عن سبب ذلك القرع الذي سمعوه– جاء مساعد من المناوبين ليستطلع الأمر، فسأل من خارج الزنزانة، فأخبرته أنّني لا أستطيع التنفس وصدري يؤلمني، قال:

– وماذا أفعل لك؟ غداً إذا جاء مساعد الطبيّة أخبره بذلك.

ومشى وهو يتمتم ببعض الشتائم، بقي أبو ممدوح تلك الليلة،

يستريح قليلاً، ويلوّح بسترته قليلاً يحرّك هواء الزنزانة، فغفوت قليلاً واستيقظت وقد ذهب عنّي ما أصابني.

في المساء مرّ السخرة (أحد المعتقلين) على الزنزانات يخبرنا أنّ المساعد أبا أحمد أحضر صابوناً وشامبو سنان فمن أراد أن يشتري، وعنده مال في الأمانات، فليجهّز نفسه، وقد فرحت بذلك فرحاً شديداً، وقلت للشاب البدويّ الذي معنا في الزنزانة وقد عاد من حفلة التعذيب (التحقيق الأولى) وقد ازرقت عينُه من كثرة الضرب، فلم يعد ير بها بشكل صحيح: قلت له:

– اخرج واطلب دواء من المساعد أبي أحمد، وقل له أنا أدفع ثمنه.

عندما خرجت إلى أبي أحمد اشتريت قطعتي صابون وعلبتي شامبو سنان، ووجدتها فرصة لأخبره بما حصل معي بالأمس، ورجوته أن يجلب نظّارتي من الأمانات، وأن ينقلني إلى الجماعيّة، وقد أضافوا نزيلاً جديداً إلينا في الزنزانة، وهو من أهالي مدينة حمص، قال: إنّهم اعتقلوه في الضاحية الشبابيّة،

وقد عرفه أبو محمد، وأخبر أبا محمد بأنّ برّاكيته قد نُهبت، فزاد غمّه غمّاً، لم ترتح نفسي لهذا المعتقل الجديد، عدت أحمل الشامبو والصابون، وقلت للإخوة اذهبوا وأحضروا المزيد، وقولوا لأبي أحمد على حسابي، فذهب أبو محمد وآخر فأحضر كلّ واحد منهم علبة شامبو ولوح صابون، أذكر هذا لأنّي أظنّ أنّ عملي هذا كان سبباً لأن يرق لي قلب المساعد أبي أحمد قليلاً، وكأنّ الله تعالى يسّر لي هذا لأنّني قضيت حاجة إخواني، فقد فاجأني المساعد أبو أحمد بعد أن انتهى من توزيع الدواء بأن أحضر لي نظارتي إلى الزنزانة، وكم كانت فرحتي عظيمة بها، إذ صرت أستطيع رؤية القمل على ثيابي، والمفاجأة الأكبر كانت بعد منتصف تلك الليلة، فقد جاء أبو أحمد- وكان يومها مناوباً- فقال لي: هات ثيابك وتعال. جمعت ثيابي على عجل، وأنا لا أكاد أصدق، وظننت أنّهم سيطلقون سراحي، وظنَّ رفاق الزنزانة ذلك، مشيت خلف أبي أحمد الذي قال لي: إن سألك أحد من نقلك إلى الجماعيّة، فقل حالة مرضيّة اضطراريّة. فعلمت أنّني منقول إلى الزنزانة الجماعيّة، وانتهت

لحظات حُلم إطلاق السراح.

في الجماعيّة

بعد أن أدخلني المساعد أبو أحمد إلى الجماعيّة، وقفت قرب الباب أنظر حولي، وأنا أحمل ثيابي بيدي، فقام ذاك المعتقل اللبناني- صاحب الشعر المستعار- الذي كان معنا في المنفردة فسلّم عليّ بحرارة أعادت لي بعض الطمأنينة من ذهولي، وكنت قد وصلت إلى حال صحيّة مزريّة من قلّة الأكل والنوم، ثمّ قام رجل في الخمسينات فعانقني وسلّم عليّ سلاماً حميماً، وهو يقول لي:

- أهلاً وسهلاً. وناداني باسمي، وهو يقول:

- هل عرفتني؟

- قلت: لا، ولكنّ وجهك مألوفٌ لديّ.

- قال: أنا فلان، كنّا معاً في الثانويّة.

وجعل يذكر لي بعضاً من رفاق المدرسة الذين كانوا معنا، كان أكبر منّي سنّاً، علا الشيب رأسه ولحيته الطويلة وشاربه، أجلسني بقربه في ذلك الزحام الشديد في الزنزانة، وسألني عن

سبب اعتقالي، وحدّثني عن سبب اعتقاله، وملخّصه: أنّه بعد أن هجّر من بابا عمرو بعد دخول عصابات الأسد إليها أواخر شهر شباط ٢٠١٢، وعرفت من سرد حديثه أنّ ولده استشهد بالقصف المدفعيّ على بابا عمرو.

بعد خروجه من بابا عمرو سكن في الشمّاس وهو حيّ قريب من بابا عمرو، وبقي هناك فترة من الزمن، ولأنّه كان يعمل مؤذّناً قبل الثورة، راجع مديريّة الأوقاف لعلّهم يجدون له مسجداً يعمل فيه، فأخبره مدير الأوقاف أنّهم سيعيدون فتح مسجد السمّان في أوّل حيّ بابا عمرو، وعيّنه ليقوم بمهمّة الأذان فيه، فقال له:

– ولكن ليس هناك أناس؟!

– قال: ولو.. تقوم بالشعيرة.

– قال: وكيف سأمرّ على الحواجز هناك؟

– قال: سأعطيك ورقة بخصوص ذلك.

قال: فبقيت حوالي الشهر، أذهب كلّ يوم لأذان الظهر والعصر فقط، أمّا الأوقات المسائيّة فلا أجرؤ على ذلك، ثمّ

اعتقلوني على أحد الحواجز عند خروجي في أحد المرّات، وها أنا هنا منذ شهر تقريباً، كنت في المنفردة، ونقلت إلى هنا منذ عشرة أيّام تقريباً.

بقينا معنا عشرة أيام، ثمّ نقل إلى الرباعيّة، ولكنّه قبل أن يذهب أعطاني المنشفة التي كان يستخدمها، ولا أدري من أين حصل عليها، وبدوري أعطيتُها أحد المعتقلين عند نقلي إلى الرباعيّة، وكم كنت بحاجة إليها هناك.

الجماعيّة:

في قبو فرع الأمن السياسيّ في حمص زنزانتان جماعيّتان، لا يوجد في إحداهما مكان لقضاء الحاجة (تواليت)، يخرج المساجين جماعياً في أوقات محدّدة لقضاء حاجتهم مرّتين في اليوم، كما لا يوجد صنبور مياه، تملأ القوارير الموجودة في طرف الزنزانة، وليس لها أيّة فتحة تهوية أو نافذة يدخل منها ضوء، والمعتقلون يعيشون على ضوء مصباح كهربائي خافت. عرفت هذا حينما نقلونا أقصد كلّ من في الزنزانة الجماعيّة الثانيّة إليها، حينما أرادوا تركيب كاميرات مراقبة، كما استنتجنا.

الجماعية الثانية أكبر من الأولى، وفيها مكان لقضاء الحاجة (تواليت) في زاويتها، وله باب، وهذه ميزة عظيمة، وفيها مغسلة وصنبور ماء.

والأهمّ من ذلك أنّ فيها فتحة في أعلى الجدار اليميني قرب السقف، يدخل منها الهواء والضوء، ويُسمع من خلالها صوت الأذان، ولأنّها بلا زجاج يدخل عبرها هواء بارد شديد البرودة، وكنّا في شهر كانون الثاني، ومع ذلك كنّا لا نشعر بالبرودة، ربّما من شدّة الزحام، ولعلّ ما في هذه الفتحة من الامتيازات الأخرى أذهلنا عن الإحساس بالبرد، ومن جملة هذه الامتيازات أنّني رأيت من خلالها اللون الأخضر أوّل مرّة بعد حوالي عشرين يوماً، حيث يظهر من ورائها بعض أطراف شجيرات في الخارج.

عندما دخلت إلى الجماعيّة لم أجد فيها مكاناً قرب الجدار أجلس فيه، وأسند ظهري، فكلّ معتقل له مكانه، ولشدّة الزحام كان هناك معتقل فلسطيني في السبعينات من عمره، لم يجد مكاناً يسند ظهره إليه إلا الجدار قرب باب الحمام

(التواليت) وكان أمضى أكثر سنيّ عمره يعمل في الخليج، وكان سبب اعتقاله –كما قال– أنّه تلقّى حوالة ماليّة من أحد أقربائه في الخليج، وهي مرسلة عن طريق شركات الصرافة المرخّصة في سوريّة، ومع ذلك اعتقلوه، علماً بأنّني لم أسمع منه مرّة واحدة ما يدل على أنّه من المعارضين لحكم بشّار الظالم، بل كان يصرّح بحنقه وغضبه من الذين ثاروا وأوصلونا إلى هذا الخراب والدمار على حدّ تعبيره، وحين سألته في إحدى المرّات عن عدم صلاته؟ وهو في مثل هذا العمر، اعتذر بصعوبة مسألة الطهارة في وضعنا هذا، بقينا معاً حوالي ٢٠ يوماً، ثمّ انتقلت إلى اللجنة الرباعيّة وتركته في الجماعيّة ولم ألتق به ثانية.

نوم عميق لأوّل مرّة

كنّا في الجماعيّة أكثر من ستّين شخصاً، نتكدّس فوق بعضنا في غرفة لا تتجاوز مساحتها الثلاثين متراً، اضطررت في الليلة الأولى أن أنام في المنتصف حيث يبقى قليل من الفراغ بين أقدام المعتقلين، وحيث كان أغلب القادمين الجدد إلى الزنزانة ينامون، فكانت أقدام النائمين في صدر الزنزانة عن اليمين،

وأقدام النائمين في الجهة المقابلة عن الشمال، وأقدام الفلسطيني السبعيني عند رأسي، وأقدامي عند رأس معتقل من الحولة، أعطاني ذلك الرجل الذي كان معي في الثانويّة قطعة رقيقة من كيس نايلون كان يضعه تحته فوضعتها تحتي وافترشت الأرض، ولم يكن عندي ما أتغطى به سوى سترتي التي كنت ألبسها حين اعتقالي، مع كلّ هذه الظروف العصيبة نمت حوالي ثلاث ساعات بعمق أوّل مرّة.

قصص المعتقلين لا تحصى

كما أسلفت كنّا في الزنزانة حوالي ستّين معتقلاً، وإذا أردت أن أحكي قصة كلّ واحد منهم، لطال الحديث ولصار الكتاب مجلّداً ضخماً، علماً بأنّني كنت أحاول حفظ ما أستطيع من قصصهم لأنّني وضعت من أهدافي أن أوثّق كلّ ما أراه، وما أمرّ به في الاعتقال، ولكنّي سأتحدّث عن بعض ذلك فقط، بحسب ما أرى من فظاعة قصصهم ومأساويّتها وخصوصيّتها، لأنّ جميع القصص متشابهة في الإطار العام، من حيث الاعتقال العشوائيّ والتعذيب و والمظلوميّة، وما رأيت خلال فترة اعتقالي

كلّها (إرهابيّاً) واحداً حتّى على مقاييسهم المعلنة، والجميع يعلم أنّهم يعتبرون كلّ معارض لنظام بشار الطائفيّ إرهابيّاً.

عيد الميلاد في الزنزانة

بعد حوالي عشرة أيام من نقلي إلى الجماعيّة، أتوا بمعتقلينِ اثنين أعمارهما متقاربة، بين الستين والسبعين، وربّما تجاوز واحد منهما السبعين، هما أخوان من مسيحيي منطقة قرية ربلة قرب مدينة القصير على الحدود اللبنانيّة السوريّة من جهة حمص، والتي اجتاحتها عصابات بشار وحزب الله اللبنانيّ أوّل حزيران من عام ٢٠١٣، وهجّر أهلُها والنازحون الذين كانوا فيها من أهالي بابا عمرو والمناطق المجاورة لها إلى يبرود وعرسال.

يدلّ سبب اعتقالهما على مدى الانحطاط والنذالة التي وصلت إليها عصابات بشار الأسد، وملخّص قصّة اعتقالهما أنّ امرأتين كبيرتين في السنّ من أهل القصير قرّرتا العودة إلى القصير، بعد أن ضاقتا ذرعاً بالشتات والتشرّد، فدخلتا من الحدود اللبنانيّة عند منطقة ربلة مشياً على الأقدام، وعندما وصلتا إلى ربلة كان الجهد والتعب قد أخذ منهما كلّ مأخذ،

وهما في تلك السنّ، فرآهما أكبر هذين الأخوين، ولم يعلم كيف دخلتا إلى سوريّة، وهما على أرض سوريّة، فأخذهما إلى بيته حيث زوجته وأولاده بعد أن رأى حالهما، و هذا أمر مألوف بين أهالي القصير وربلة، فقد عاشوا جواراً طويلاً من غير منغّصات، وبالرغم اختلاف دينهما تربطهما بين كثير منهم علاقات صداقات ومودّة، فباتتا تلك الليلة عند أهله وأولاده، وفي اليوم الثاني أعطى شقيقه ألف ليرة ثمناً للبنزين ليوصلهما بسيّارته إلى أقرب نقطة من مدينة القصير، وعندما وصلا إلى أوّل حاجز لشبيحة بشار، سألوهما:

– من أين أتيتما؟

– فقالتا بكلّ بساطة وطيبة قلب: من لبنان.

– وكيف دخلتما إلى سوريّة؟

– قالتا: مشياً على الأقدام.

فاعتقلوهما مع السائق، ثمّ اعتقلوا أخاه الذي استضافهما في بيته، وأتوا بهم إلى فرع الأمن السياسيّ، كان الكبير فيهما يتحدّث مع باقي المعتقلين ويمازحهم، والثاني قليل الكلام، ومن

المصادفات أنّ ذلك كان قبل عيد الميلاد بيومين، فبقيا معنا في الجماعيّة حوالي ثلاثة أيام، ومرّ العيد عليهما وهما معتقلان، فعايدناهما في الزنزانة، ونحن نواسيهما بمرور العيد وهما في هذه الحال، فابتسم الكبير منهما وهو يقول:

– هذا ليس عيدنا، هذا عيد الغربيّين، عيدنا الأسبوع القادم.

خرجا بعد ثلاثة أيام كما أسلفت، بعد أن خضع كلّ واحد منهما لجلستي تحقيق.

درس في الزنزانة

عندما دخلت إلى الجماعيّة قام ذلك الرجل اللبناني الذي كان معنا بالمنفردة فأخبر شاويش الزنزانة بأنّني كنت أحدّثهم وأدعو لهم في المنفردة، فقال لي: الشاويش وهو ثلاثينيّ اسمه (أبو ناصر) وكان يعمل لحّاماً، وهو من الذين عملوا تسوية مع النظام، وخرجوا من أحياء حمص المحاصرة، بعد أن سلّم كلّ واحد منهم بندقيّته، ولكنّ عناصر الأمن اعتقلوه بعد فترة وجيزة، فكان شديد الحنق على مدير الأوقاف الذي ضرب يده على صدره ضامناً له ألّا يُعتقل، وقد أطلق سراحه قبل نقلنا إلى

اللجنة الرباعيّة، وكنت قد أوصيته أن يتصل بزوجتي ويطمئنها عن حالي ففعل، بل نصحها بأن تطلب من ولدي عبد الرحمن أن يقوم بتسوية مع الأمن ليطلقوا سراحي، وأخبرها أنّني بخير، وقال مازحاً:

– إنّه كان يعطينا دروساً في الزنزانة.

كما أخبرتني زوجتي حين خرجتُ، ولكنّها أوجست منه خيفة، وهو يتحدّث بهذه الطريقة الصريحة.

قال لي أبو ناصر: ألا تحدثنا هنا، كما كنت تفعل في المنفردة؟

قلت: بلى أفعل، ولكن أليس في هذا خطر عليّ وعليكم؟

قال: نأخذ كافّة الاحتياطات، وإن حصل شيء فأنا المسؤول.

فكنت أحدّثهم كلّ ليلة بعد أن نأكل طعام العشاء ونصلي وقته (حوالي الثامنة مساء) وكنّا في الجماعيّة نسمع الأذان ونعرف

أوقات الصلاة.

مواساة وتشجيع

معلوم بداهة أنّني لم أكن أتطرّق في حديثي إلى أمور السياسة و

ما يتعلّق بها، ففي الزنزانة عشرات الأشخاص، وأغلبهم لا أعرف عنهم شيئاً، وربّما كان بعضهم عيناً (مخبراً) للنظام، فكنت أقصّ عليهم قصص الأنبياء والصالحين، وما تعرّضوا له من محن وبلاء، وأواسيهم، وأواسي نفسي، وأشجّعهم على الصبر، وأدعوهم إلى الالتجاء إلى الله، ثمّ أدعو لهم في ختام كلّ جلسة – لم تكن تتجاوز النصف ساعة– بقيت هكذا حوالي عشرة أيام، حتّى اشتدّ بي الهزال، فلم أعد أستطيع الحديث، وصرت أدخل الحديث في بعضه، فصرت أختصر الوقت، وربما أكمل بعدي رجل ستّيني (كان معتقلاً معنا مع ابنه وابن أخيه) من قرى القصير، فيحكي لهم بعض الحكايات ممّا سمعه من أبيه وجدّه.

أطفال في الزنزانة

من الأمور التي أَدْمَتْ قلبي، وآلمتني وجود أطفال معنا في الزنزانة، وعندما أقول أطفال أقصد من لم يبلغ الثامنة عشرة، كانوا ستّة أطفال بين السادسة عشرة والسابعة عشرة، من مواليد (١٩٩٧و١٩٩٨) كانوا يحاولون أن يظهروا بمظهر

الرجال، ولكن كانت تغلبهم طفولتهم في كثير من الحالات، في إحدى الليالي وبينما كنت أحاول مغالبة عينيّ لأنام، وقد نام أغلب من في الزنزانة، إذا بأصغر هؤلاء الأطفال يأتي إلى مكان نومي، وكان هؤلاء الأطفال ينامون في جهة واحدة، جلس أمامي ودموعه في عينيه، وهو يقول:

– اقرأ لي يا شيخ.

قلت: ماذا هناك؟

قال: أشعر بضيق في صدري، وأكاد أنفجر.

قلت: هدّئ من روعك، واحكِ لي قصّتك، ما الذي أتى بك إلى هنا؟

قال: أنا وحيد والديّ من الذكور، وبيتنا في الإنشاءات قرب الحاجز، عشت مدلّلاً لا أهتمّ بشيء، وحال والدي الماديّة جيدة، لسنا أغنياء ولكنّنا مكفيّون، وكنت أحبّ أن أتميّز عن رفاقي بكلّ شيء، ومن ذلك أنّني كنت أسلّم على عناصر الحاجز، وأجلس عندهم وآتي لهم ببعض الطعام في بعض الحالات، فصرت أمر على الحاجز، ولا يوقفني أحد، فكنت

أتفاخر بهذا على أولاد جيراننا، وفي يوم من الأيام كنت أمازح أحد عناصر الحاجز، وقد ظننت أنّني صرت من المقرّبين عندهم، ويحقّ لي أن أمازحهم، كما يمازحونني، فغضب منّي وأخذ بطاقتي الشخصيّة، وقال لي انتظر هنا. وأنا أقول له: متعجّباً مذهولاً: يا فلان أنا صديقك ألم أفعل وأفعل؟! وما هي إلى دقائق قليلة حتّى جاءت سيّارة الفرع وأخذتني، وأنا هنا منذ شهرين، استطاع والداي أن يرسلا لي بعض الثياب بعد أن دفعا رشوة للحرس الخارجي.

وكنت أتعجّب في قرارة نفسي من ثيابه المميّزة والغالية، قلت له:

– لا حول ولا قوة إلا بالله، مالك ولهؤلاء الأبالسة؟ قال لي: (ولدنة).

– قلت له: كم عمرك؟

– قال أنا: من مواليد ١٩٩٨ يعني عمري ستة عشر عاماً.

– قلت له: حتّى لو كنت مذنباً، فلا يجوز أن تكون هنا، أنت بالقانون حَدَث، بالإضافة إلى أنّه لا يجوز توقيفك هنا أكثر من

ثلاثين يوماً.

– قال: لقد اتهموني بالانتساب إلى مجموعة مسلّحة، وضربوني حتّى كدت أن أفقد وعيي، ماذا أفعل أخاف أن أمضي عمري في السجون.

– قلت له: لا تخف أنت مظلوم، وسيأخذ الله لك حقّك.

وطلبت منه أن يسلّم أمره لله، ويلتجئ إليه، فهو القادر على أن يفرّج عنّا ما نحن فيه، وهو معنا يسمع ويرى، وهو رحيم وعادل ولا يحبّ الظلم والظالمين، ولن يبقي الظلمة يتحكّمون بحياتنا، ولو تأخّر الأمر قليلاً. ووضعت يدي على صدره أُرقيه بما أحفظ من رقى، حتّى قام وهو منشرح الصدر، نقلوه من الزنزانة قبل نقلي إلى الرباعيّة بأيام، بعد جلستي تحقيق جديدتين، عاد من إحداهما لا يستطيع الوقوف على رجليه من شدّة الضرب، مع آثار التعذيب البادية على وجهه وباقي جسده، وقد أقرّ بكلّ ما طلبوه منه من تهم، ولم أره بعدها.

في اليوم الثاني جاءني أحد أولئك الأطفال، وقد حكى له رفيقه ما جرى بالأمس معي، قال لي: اقرأ لي يا شيخ، فقد حدثني

فلان وذكر اسم صديقه، أنّه ارتاح قليلاً بعد أن تحدّث معك، قلت له أهلاً وسهلاً. حدّثني عن قصّة اعتقالك، فقال لي: إنّه (الوتس آب) وملخّص قصّته: أنّه كان مع أصدقائه يتمازحون بإرسال رسائل كاذبة لبعضهم على (الوتس أب) يدّعون فيها أنّهم عملوا وفعلوا وذهبوا وجاؤوا وقالوا، وكلّها أشياء مختلقة يتضاحكون بها، وفيها كثير من الألغاز والكلمات غير المفهومة، وبينما كان أحد اصدقائه مارّاً على أحد الحواجز فتّشوا جوّاله، فوجدوا فيه تلك المحادثات الوهميّة، فاعتقلوه مع باقي رفاقه، وقال لي وهو يشير بيده إلى أحد الأطفال في الزنزانة:

– هذا من الذين اعتقلوا معي.

فهدّأتُ قليلاً من روعه، ورقيته كما فعلت مع الأوّل، وقد لاحظت أنّ هؤلاء الأطفال كانوا أكثر من في الزنزانة متابعة لما أتحدث به مساء كلّ ليلة.

فجل في الزنزانة

لم أجد لمشكلتي المزمنة –مع ما يقدّم لنا على أنّه طعام– حلّاً،

وكنت أتساءل: ألا يوجد طعام غير ذلك الأرزّ الذي يقدّمونه لنا كأنّه كتلة واحدة، كنت أستسيغ البرغل أكثر، وخصوصاً عندما يضعون معه رائحة صلصة بندورة، كنت أتساءل: أليس من الأسهل عليهم أن يطعمونا بطاطا مسلوقة، فهي لا تحتاج إلى طبخ، فقط يضعون البطاطا في القدر ويتركون الماء يغلي عليها، نعم هذا أسهل لهم، ولكنّ المسألة متعلّقة فقط بمزيد من القهر والإذلال، وبقيت أشتهي أن آكل البطاطا حتّى انتقلت إلى الرباعيّة لتملّها نفسي من كثرة ما أكلتها.

طبعاً عندما أتحدّث عن البطاطا هكذا، فمن باب أولى الحديث عن أيّ نوع من أنواع الخضار التي كدنا ننسى شكلها وطعمها، أذكر أنّنا خلال حوالي الشهر الذي مكثت فيه في الفرع لم يقدّم لنا خضار إلا مرتين وكنت في الجماعيّة، مرّة قدّموا لنا بصلاً، ومرّة قدّموا لنا فجلاً، يا الله لقد رأينا الفجل بعد هذه الأيّام، لك أن تتصوّر السعادة التي غمرتنا ونحن نرى الفجل، قسم الشاويش الفجل بين المجموعات في الزنزانة، وكانت كلّ مجموعة حوالي الثمانية تقريباً، فكانت حصّة كلّ مجموعة ثلاث

فجلات، وكانت تحتاج إلى قسمة، فكان يضع من يقوم بمهمة التقسيم في كلّ مجموعة الفجلة على الأرض ثمّ يضغط عليها بيده فتتفتّت إلى قطع صغيرة يعطي كلّ واحد قطعة، ولكنّها كانت كافية لتدخل نوعاً من التغيير على الروتين اليوميّ للطعام، وهكذا حصل يوم قدّموا لنا قليلاً من البصل.

جلسات التعذيب اليومي

قلت سابقاً إنّنا كنّا في الجماعيّة حوالي ستين معتقلاً- حسب تقديري- عدا عمن كان يدخل لليلة واحدة أو ليلتين ثمّ يذهب، كثير منهم تتراوح أعمارهم بين العشرين والخمسين، وفيهم أكثر من عشرة قد تجاوزوا الستّين، مع حوالي ستّة أطفال، وجلّ من في الزنزانة من مدينة حمص وريفها.

ومع هذا العدد الكبير فلا تكاد تمضي ليلة إلا ويخضع أحد أفراد الزنزانة لجلسة تحقيق، أو بالأحرى جلسة تعذيب، بحيث يصل صراخ المعتقل وأنينه إلينا حتّى كأنّنا نُعَذّب معه، وقد يتجاوز الأمرُ التعذيبَ إلى الشبح على باب الزنزانة، حيث تربط يدا المعتقل بحبل ثمّ يعلّق الحبل بأسطوانة حديديّة معلّقة

قـرب السـقف، ثمّ يشـد الحبـل فيرتفـع المعتقـل عـن الأرض ويتأرجح في الهواء لتحمل يداه جسده، ليبقى على هذه الحال ساعة أو أكثر بحسب جَلَدِه و قوّة تحمّله، ثمّ ينهار ويعترف بالـذي يريـدون منـه أن يعـترف بـه، وقـد يغمـى عليـه، وهـذا أسلوب معروف مشهور في فروع أمن عصابات بشار، وقد رأيت ذلك خلال مكثي في الفرع مرات كثيرة.

كـان أكثـر المعتقلـين وخصوصـاً الشـباب يعـودون مـن جلسـة التحقيـق وقـد تـرك التعـذيب آثاره علـى وجـوههم وأيـديهم وأرجلهـم، وخصوصـاً الأرجـل، وقـد كـان التعـذيب باسـتخدام الدولاب تقليداً متبّعاً في كلّ جلسة تحقيق، حيث يوضع المعتقل في إطار سيّارة، بحيث يفقد القدرة على الحركة، وتصبح قدماه ورأسـه في جهـة، وباقـي جسـمه في الجهـة الاخـرى، ويتعـرّض لضرب شديد على قدميه بكبل رباعي بلاستيكي، وربّما وصل إلى أن يفقـد الإحسـاس بقدميـه، ولا يسـتطيع المشـي عليهمـا، وعندما يرمى في الزنزانة بعد حفلة التعذيب، يلتف حوله رفاق الزنزانة ويطلبون منه أن يهرول في مكانه حتّى لا تفسد قدماه،

ويتناوبون على تدليك قدميه لفترة طويلة، ولقد رأيت من بقي أياماً لا يستطيع الوقوف على قدميه من شدّة الضرب.

وأكثر المعتقلين عذاباً كانت فئة الشباب، فقد كانوا يتعرّضون لعذاب مضاعف، بحيث يضربون بالأيدي والأرجل وبـ (كبال البلاستيك) على جميع أعضاء جسدهم، على الرؤوس والوجوه والأيدي والأقدام والظهر والبطن، ولقد عاد أحد المعتقلين مرّة من جلسة التعذيب – وهو شاب عشريني من ريف حمص- وقد اختفت معالم وجهه من كثرة الدماء التي تسيل منها، وبقيت عيناه وأنفه متورّمين أكثر من عشرة أيّام.

موجّهان من التربية في زنزانة واحدة

من طرائف ما حصل معي أنّنا بينما كنّا جالسين مرّة بعد العشاء، إذا بباب الزنزانة يفتح ويدفع فيها رجل في أواخر الأربعين، أحمر الوجه، يلبس بذلة رسميّة، عندما نظرت إليه أدركت أنّني قد رأيته قبل هذه المرّة، ولكن لا أذكر أين، ولكنّه عندما رآني اعتنقني وسلّم عليّ بحرارة وهو يردّد اسمي.

- كيف حالك؟ ما الذي أتى بك إلى هنا؟!

رحّبت به. قال: كأنّك لم تعرفني؟

قلت: بلى عرفتك، ولكنّني لا أذكر اسمك.

قال: أنا فلان الموجّه التربوي.

فتذكرت اسمه وهو من ريف حمص القريب، ولكنّه يسكن في المدينة، أظنه قال أنّه يسكن في ضاحية الأوراس، صحيح أنّني لم أكن ألتقي به كثيراً لأنّه تربوي وأنا اختصاصي، ولكنّني تذكرته تماماً. فكنت أمازحه وأقول له: لم يبقَ إلا أن نفتح مدرسة.

حكى لي عن سبب اعتقاله وملخّصه: أنّه عندما قامت الثورة بقي في حمص يتابع عمله، وكان عنده سيّارة نقل عام (تكسي) يعمل بها بعد دوامه، كمصدر دخل إضافي، كحال أكثر الموظفين الذين لا يكفيهم راتبهم حاجيات حياتهم الأساسيّة، اعتقل مرّة سابقة في أحد الحواجز، وأُخذ إلى فرع الأمن الجويّ، وأطلق سراحه بعد أيّام وقيل له تشابه في الأسماء، وبقي حرّاً طليقاً أشهراً، حتّى اعتقل مرّة ثانية عند أحد الحواجز، وسيق هذه المرّة إلى فرع الأمن السياسيّ حيث التقيت به، وكان كثيراً

ما يردّد: يا ليتني ذهبت وحللت قضيّة تشابه الأسماء هذه، وهو يقول: اليوم يطلق سراحي، وغداً يطلق سراحي، وهكذا. ربّما كان مقتنعاً حقيقة أنّه تشابه في الأسماء. تركته في الفرع عندما حوّلوني إلى الرباعيّة، والتقيت به بعد عشرين يوماً فيها، ثمّ انتقلت إلى عدرا وتركته في الرباعيّة.

الاستعداد كلّ يوم للخروج

كان معنا رجل في أواخر الخمسينات من أهالي مدينة حمص، ضخماً طويلاً، قليل الكلام، لا أذكر الآن ما مرضه، لكنّه كان مريضاً مرضاً مزمناً، ينتشر القمل على فراشه القذر الذي ينام عليه، ولم يكن في الزنزانة فراش سواه، كان يأكل وحده، بينما كنّا نتوّزع جماعات كما أسلفت. منذ نقلي إلى الزنزانة وأنا أراه يستيقظ صباحاً قبل الجميع، ينظّف وجهه ويديه ويتوضأ ثمّ يلبس ثياباً نظيفة غير التي يمكث فيها في الزنزانة، وكأنّه يستعد لمقابلة أحد ما، ثم يبدأ المشي ذهاباً وإيّاباً في الفُرَج بين المعتقلين، تكرّر ذلك أمامي مرّات عديدة، يفعل هذا كلّ صباح، حتّى إذا اقترب وقت الظهر خلع ثيابه تلك ووضعها في

الكيس، وعاد إلى ثيابه القديمة، سألت أحد رفاق الزنزانة عن ذلك، فأخبرني: أنّه قد أكمل كلّ جلسات التحقيق وبصم على ملفه، والعادة أنّ من يفعل ذلك، إمّا يطلق سراحه، وإمّا ينقل إلى اللجنة الرباعيّة، وهو يعتقد أنّه سيطلق سراحه، فقد كان يحاول أن يحفظ أرقام هواتف المعتقلين ليطمئن أهليهم عنهم، ويستعدّ كلّ يوم ليخرج إلى أهله بثياب نظيفة، بقي على هذه الحال حوالي عشرة أيام، ثمّ خرج وظنّ الجميع أنّه أطلق سراحه، ولكنّني رأيته بعد ذلك عندما انتقلت إلى الرباعيّة ولم أره بعدها. ولكن ما أذكره أن شاويش الزنزانة أسرع بعد خروجه إلى فراشه وجمعه على بعضه ورماه في الحمام، ولم يسمح لأحد أن يستخدم أيّاً من حاجياته التي تركها.

عجوز الباركنز

في إحدى الليالي فتح باب الزنزانة وأدخل إلينا رجل عجوز يتجاوز السبعين من عمره، كان يمشي ببطء شديد، ويداه ورأسه تهتزان بشكل مستمرّ، كان عجوزاً وقوراً، يلبس ثياباً غالية متناسقة الألوان، تدلّ على أنّه يعرف تفاصيل الحياة

المخمليّة، كما تدلّ على أنّه ميسور الحال، وتقاسيم وجهه تدلّ على أنّه كان في يوم من الأيام ذا شأن.

بعد أن أغلق السجّان باب الزنزانة أسرع إليه رفاق الزنزانة، وأخذوا بيده يساعدونه على المسير، وأجلسوه في صدر الزنزانة والتفّوا حوله يسألونه عن سبب اعتقاله، فقال بصوت متقطع يهتزّ مع اهتزاز رأسه: كنت عائداً من طرطوس فأوقفوني على الحاجز، ورأوا معي حوالة ماليّة بقيمة ٢٥ ألف ليرة، كنت ذهبت إلى طرطوس لأقبضها، قالوا لي هناك تشابه في الأسماء، وإنّها ساعات قليلة وسيطلقون سراحي، كان قلقاً على ابنته التي كانت تنتظره في البيت، ولم يكن قد بقي له من أسرته سواها، وقد أخبرها أنّه انطلق من مدينة طرطوس عائداً منذ ساعتين، وهي تتوقع وصوله بين لحظة وأخرى، وقد تأخر عليها، وقد أخذوا هاتفه المحمول، ولم يسمحوا له بمهاتفتها، كنت أجلس قريباً منه أسمع ما يقول، قلت في نفسي لم يبقَ عند هؤلاء السفاحين ذرّة رحمة حتّى يأتوا بمثل هذا العجوز المريض الذي لا يقوى على الكلام. وعندما انفضّ رفاق الزنزانة من حوله

اقتربت منه، وعرّفته بنفسي وعملي، وجعلت أسأله عن عمله ودراسته، كان من أسرة معروفة في مدينة حمص، وهو من كبار الاقتصاديّين في سوريّة، قال لي: خدمت سوريّة عمري كلّه، وبقيت أكثر من خمس وثلاثين سنة ممثلاً لسوريّة في المحافل والمؤسّسات الدوليّة، وأنا أتقن الإنكليزيّة والفرنسيّة، وعملت مستشاراً لوزير التخطيط أكثر من عشر سنوات، و ها أنا في هذه الزنزانة، مع أنّ بيتي لا يبعد عن هذا المكان عشرات الأمتار، وقد طلبتُ منهم أن يرفقوا بحالي الصحيّة ومرضي و يتركوني أذهب إلى بيتي، وأحضر إليهم عندما يريدون، وأعطيتهم عنوان بيتي القريب، لكنّهم رفضوا ذلك، وقالوا لابدّ أن تبقى هنا حتّى نتأكّد من المعلومات التي تخصّك. ولم يستطع إخفاء الدموع التي حاول منعها من الهروب من عينيه، بقي مستيقظاً تلك الليلة حتّى الصباح، ثمّ أخرج في الصباح من الزنزانة.

١٠ آلاف دولار

في أحد الأيام فتح باب الزنزانة ودُفع فيها رجل بين الأربعين والخمسين، يعرف من يسمعه أنّه من ريف حمص الشرقي، كان

خائفاً لدرجة الهلع، لم يستطع القعود طوال فترة اعتقاله، كان دائم الكلام، ولما سأله رفاق الزنزانة عن سبب اعتقاله، قال:

-أنا أملك سيّارة شحن كبيرة أعمل عليها، وعندي سيّارة تكسي أيضاً، بقيت أعمل في نقل البضائع إلى فترة قريبة، مع كلّ المخاطر التي كنت أتعرّض لها، و في الفترة الأخيرة وبعد ازدياد درجة المخاطر بعت السيّارة بـ ١٠ آلاف دولار، وقرّرت التوقف مؤقّتاً عن العمل، ولكنّني لم أستطع القعود في البيت، كان أمراً يفوق قدرتي على التحمّل، فقررت أن أشتري سيّارة وأعود للعمل، فقصدت السوق الحرّة مع بعض أقاربي بسيّارتي التكسي، وفي الطريق أوقفنا حاجز للأمن، وعندما فتّشوا السيّارة وجدوا معي المال فأخذوه مع ٣ ملايين ليرة سوريّة، وأتوا بي إلى هنا، وتركوا قريبيّ اللذين كانا معي في السيّارة عندما قلت لهم: أن لا علاقة لهما بالمال، وأنّه لي، وقد طلبت منهما أن يجريا الاتصالات اللازمة لإخراجي من هنا بكلّ الوسائل.

اقتربت منه وحاولت أن أهدئ من روعه، ولكنّي لم أفلح، وهو يطلب المرّة بعد المرّة أن أدعو له، وبقي يتكلّم ويكرّر مرّات

ومـرّات أنّ قضـيّته ليسـت سياسـيّة، إنّهـا فقـط مـن أجـل الدولارات. وكأنّ من كان في الزنزانة معارضون سياسيون؟! لا أدري ربّما كان سبب خوفه أن يتّهموه بالإرهاب أو بالمعارضة السياسيّة، بقي معنا ليلة واحدة، خضع فيها لجلسة تحقيق عاد منها وليس عليه آثار تعذيب، ولكنّه بقي هلعاً لا ينقطع عن الكلام، ولم يتكلّم عمّا جرى في جلسة التحقيق، ثمّ خرج في صباح اليوم التالي، ولم نعرف إلى أين.

نصيري بيننا

في أحـد الأيام فـتح باب الزنزانـة ودفـع فيهـا شـاب في أوائـل العشرينات، وكالعادة فما كاد يُغلق باب الزنزانة حتّى تحلّق حوله بعض رفاق الزنزانة يسألونه، ومن أولى كلماته أدركوا أنّه نصيري من طائفة المجرم بشار، وإن حاول أن يخفي ذلك في أوّل الأمر. وهنا لابدّ أن أذكر شيئاً هو أنّ أكثر السوريين ما كانوا يعادون أحداً من الطائفة النصيريّة لأنّه نصيري، بل كانوا يعيشون بيننا من قبل أن يستولي حافظ الأسد على السلطة وما كان أحد يؤذيهم، ولكـن بعـد أن ظهـرت جليّـة السياسـة الطائفيّـة الـتي

انتهجها نظام الطاغية الأسد الأبّ ومن بعده ولده، تولّدت تجاه هؤلاء حساسيّة خاصّة، وخصوصاً بعد تسلّطهم على رقاب أكثر السوريين الذين يمثلهم أهل السنّة، فقد استأثر النصيريون بكلّ مراكز القوى الفاعلة والمؤثرة في سوريّة بدءاً من الجيش والأمن، وانتهاء بالمدارس والجامعات، مروراً بمؤسسات الدولة كلّها. فلم يعادي سوريّ نصيّرياً لأنّه نصيري، بل عادَوْا من كان ينكّل بهم ويستبيح حرماتهم.

بعد أن عرف رفاق الزنزانة أن القادم الجديد نصيري انفضّ بعضهم عنهم وبقي آخرون.

ملخّص قصّة اعتقاله كما قال: إنّه موظف في شركة الكهرباء، وقد اتّهم بأنّه يقبض رشوة من المواطنين الراغبين بتركيب ساعات (عدّاد) الكهرباء، وبأنّه كان يأخذ أضابير أناس فيعطيها لآخرين، وآخر قضيّة جُلب من أجلها إلى الفرع كانت تتعلّق بالمول الملكي.

أدركت وأنا أستمع إليه أنّه يقيناً كان يفعل ذلك، وأنا أعرف جيّداً أنّهم ما كانوا ليعتقلوه، لولا أن تجاوز كلّ حدود الفساد

الـتي يغضـون الطـرف عنهـا، بحيـث انتشـرت رائحتـه وزكمـت الأنـوف، فلـم يعـد هنـاك مجـال للتغطيـة عليـه، حـتّى مـن أبنـاء طائفتـه الـذين ينافسـونه في هـذا المجـال، بـل ربّمـا اختلـف مـع رؤسائه المباشرين الذين يشاركونه الفساد على قسمة الحصص.

من الطريف أنّه بات معنا ليلتين، كان في إحداهما يقف عند باب الزنزانة يتكلّم مع الجلّاد المناوب بصوت منخفض – على الغالب هو أحد معارفه فقد كان يناديه باسمه– وكان الجلاّد كما فهمت ينقل له تفاصيل ما يجري في التحقيق أوّلاً بأوّل، خضع لجلسة تحقيق واحدة ثمّ خرج، ولم أره بعدها، وعلى الغالب أطلق سراحه وتمّ إغلاق القضيّة.

القصّة واحدة والاختلاف في التفاصيل

ذكرت سابقاً أنّنا كنّا في الزنزانة حوالي ستين معتقلاً، تتشابه قصص مآسيهم، ربّما لا أستطيع ذكر تفاصيل تلك القصص جميعها، ولكنّني ذكرت نماذج فقط، أغلب المعتقلين كانوا من النّاس العاديّين الذين لا يهتمون بالسياسة ولا يأبهون بمن يكون الرئيس، وربّما لا يعرفون اسم وزير واحد من وزراء حكومة بشار

الأسد، ربّما شارك بعضهم في يوم من الأيام في مظاهرة، ولكنّهم لم يقوموا بأيّ نشاط سياسي أو عسكريّ، ومع ذلك أجبروا تحت التعذيب على الاعتراف بكلّ أنواع الجرائم الجاهزة في فروع الأمن (تشكيل مجموعات مسلّحة، ومهاجمة الحواجز، والقتل، والاغتصاب، ودعم الإرهاب وتمويله والتحريض عليه أو إيواء إرهابيّين) والمشكلة الكبرى أنّه إذا أقرّ المعتقل بعد التعذيب بشيء من هذه التهم يزداد التعذيب أكثر.

فمثلاً يعترف المعتقل بعد التعذيب أنّه كان ينتمي لمجموعة مسلّحة، ولكن الأمر لا يتوقف هنا، فيزيدون أنواع تعذيبه ليذكر أسماء باقي المجموعة، فكان المعتقلون يوصي بعضهم بعضاً: أن اذكروا أسماء أشخاص تعلمون أنّهم قتلوا أو ميّتين، وكان بعضهم يذكر أشخاصاً لا علاقة له بهم، ولا يعرفهم ليتخلّص من التعذيب، فيُعتقلون. فإذا ما ذكر بعض الأسماء زادوا في تعذيبه ليذكر أسماء الحواجز التي هاجمها مع مجموعته، وأسماء الذين قتلهم أو اغتصبهنّ من النساء وهكذا.

وأنا أكتفي في هذا الجزء من الكتاب بذكر ما سبق من القصص وأترك للقارئ تصوّر ما بقي.

سبحة المعتقل

عندما دخلت إلى المنفردة، وجدت المعتقلين الذين سبقوني إليها قد صنعوا لأنفسهم سبحات من القماش، بحيث يلفّون قطعة قماش على بعضها لتصبح كالخيط، ويعقدون فيها عقداً بعدد معيّن، ويذكرون الله بها، في أوّل الأمر قلت لا يحتاج المرء لهذا، فيداه معه يسبّح بهما، ولكن مع الوقت وجدت أنّها حقّاً وسيلة فعّالة ليستمر المرء بالتسبيح والذكر، حتّى يصل الأمر به إلى أن يحرّك يديه ولسانه بالتسبيح على طول الوقت، فأخذت قطعة قماش من قميص وسخ ممزّق في الحمام – ولعلّه كان لأحد السجناء الذين قضوا فيها، فغسلته جيّداً بالماء ثمّ جلست أعقد فيها عقداً لأنتهي منها بعد وقت قدّرته بساعتين تقريباً، وبدأت أذكر فيها، ولما انتقلت إلى الجماعيّة حملتها معي خفية إلى هناك، فوجدت أكثر الإخوة هناك يملك مثلها، وبينما كنت في يوم من الأيام واقفاً حاملاً سبحتي بيدي، فُتحت (الشرّاقة) –

وهي النافذة الصغيرة في أعلى باب الزنزانة- فجأة، ووقعت عيني بعيني أحد الجلّادين، فرأى السبحة في يدي، فجنّ جنونه، وبدأ يسبني بطريقة هيستريّة، ثمّ صرخ أن هات..(.....يا .....) فتناولها أحد الإخوة منّي، وأوصلها إليه، ولعلّه اكتفى بهذا لكبر سنّي وضعفي، أغلق (الشرّاقة) وهو يتمتم بما بقي في جعبته من قاموس الشتائم القذرة التي يحفظها، بينما التفّ حولي بعض الإخوة يؤنّبونني، ويلومونني لأنّني فرّطت في الحرص، وجعلته يرى السبحة، ولولا لطف الله لتسببت لهم بعقوبة جماعيّة.

الوحشيّة درجات

كحال البشر في جميع مناحي الحياة، فهناك فروق فرديّة بين الأشخاص الذين يقومون بالمهمّة نفسها، وإن كان من الظلم للبشر أن ننسب هؤلاء الجلّادين لهم، ولكنّ الحقيقة أنّهم كانوا مختلفين فيما بينهم من حيث القسوة والوحشيّة، وإن كانوا جميعاً يشتركون بهذه الصفات، ولكن تختلف الدرجات، وقد سبق الحديث عن المساعد أبي أحمد المسؤول عن الأدوية.

كان هناك جلاّد في أوائل العشرينات لا يمكن للإنسان أن يتصوّر مدى الانحطاط والوحشيّة والنذالة التي وصل إليها، حيث لم يكن في مفردات كلماته التي يخاطب بها المعتقلين إلا القذارة والوساخة والبذاءة، بالإضافة إلى الصراخ المستمرّ، و قرع باب الزنزانة بين الفترة والأخرى من غير ما سبب، فكان رفاق الزنزانة يأخذون حذرهم عندما تكون ليلة مناوبته، وقد كان أحد اللذينِ أخرجا تلك المرأة التي تحدّثت عنها فيما سبق، كما أنّه كان أحد اللذين أخرجاني في المرة الثالثة في تلك الليلة ليسخرا منّي ويستهزئا بي، وهو نفسه الذي أخذ سبحتي، يستعيذ المعتقلون بالله منه يوم مناوبته.

من صور حقده وقسوته ووحشيّته أنّه كان حين يطلب منه إحضار معتقل للتحقيق يشبعه ضرباً ورفساً قبل أن يوصله إلى غرفة التحقيق، مع أنّ مهمته كانت فقط إيصاله إلى غرفة التحقيق.

إلى الرباعيّة

بقيت في الزنزانة الجماعيّة حوالي سبعة عشر يوماً أشاهد كلّ

يومين أو ثلاثة المعتقلِين يرحّلون إلى الرباعيّة، والرباعيّة هي لجنة أمنيّة اخترعها نظام عصابات الأسد بعد الثورة، وبعد زيادة عدد المعتقلين على طاقة الفروع الأمنيّة الاستيعابيّة، ومقرّها السجن العسكريّ في حمص، ويُطلق عليه اسم (السجن البولوني) ولا أعرف لماذا، وتتشكل لجان التحقيق في الرباعيّة من كلّ فروع الأمن الرئيسيّة الأربعة في حمص: العسكريّ والجويّ والسياسيّ وأمن الدولة. ويخضع فيها المعتقل لتحقيق جديد وكأنّما لم يحقّق معه من قبل، وكانت أساليب التعذيب فيها أشدّ وأقسى، ومع ذلك كان المعتقلون ينتظرون ذلك اليوم الذي يخرجون فيه من فروع الأمن إلى اللجنة الرباعيّة، لأنّهم يتجاوزون بذلك مرحلة من المراحل التي لابدّ منها قبل الوصول إلى سجن عدرا وهو سجن مدنيّ، تعدّ المعاملة فيه رحيمة مقارنة بما يراه المعتقلون في فروع الأمن، أو في باقي مراحل تلك الرحلة البائسة.

والعادة أنّ المعتقل يخضع لجلستي تحقيق أو تعذيب في الفرع، ثمّ يُترك ما بين العشرين يوماً إلى الشهر في زنازين الفرع، ثمّ

يخضع لجلسة تحقيق ثالثة، ثمّ يبصم في نهايتها على محضر التحقيق من غير أن يراه، أو يعرف ما فيه.

ومن المضحك المبكي أنّ المعتقل بعد أن يبصم على ما نسب إليه من تهم يدخل رافعاً بصمة إبهامه فرحاً وهو يريها لباقي المعتقلين، الذين يهرعون إليه مباركين مهنئين. ثمّ ينتظر بعد ذلك يومين أو ثلاثة ليرحّل إلى الرباعيّة، وليس هذا مضطرداً فقد رأيت معتقلين بقوا في فروع الأمن أشهراً، ربّما كان يتوقع الزبانية أن يتدخّل من يدفع لهم رشوة ليخرجهم.

عُقبى لنا

كان المعتقلون يعرفون على الغالب متى يقترب ميعاد جلسة التحقيق الثالثة، بحساب عدد الأيّام، وقد خمّنت بعد مضيّ تلك الأيام موعد جلسة التحقيق الأخيرة بالنسبة لي، وفي إحدى الليالي أُخرجت من الزنزانة لتلك الجلسة، لم يكن الذي يحقّق معي هو نفسه من حقّق معي سابقاً، عرفت ذلك مع أنّني كنت معصوب العينين، فقد كان صوته جديداً، وأسلوبه أقلّ شدّة وعنفاً، وكان ممّا قاله لي:

– ألا تريد أن تنقذ نفسك؟ لعلك فكّرت في الأيام السابقة جيداً؟

وأعاد الأسئلة السابقة بخصوص تمويل الإرهاب والتحريض على العنف وبخصوص ولدي، استغرقت الجلسة أقلّ من نصف ساعة، ثمّ أعادوني إلى الزنزانة. التفّ حولي رفاق الزنزانة يهنئونني، ويسألونني: هل بصمت؟

أجبت بالنفي، وفي الليلة التالية أُخرجت من الزنزانة، وكان المساعد الذي حقّق معي قد جلب أوراق التحقيق معه إلى باب الزنزانة، ومعه (الاستنمبة) فأجلسني على مقعد طويل عند باب الزنزانة – يرتاح عليه الحرس الجلّادون عادة– بعد أن وضع العصابة على عينيّ، ثمّ قال لي: ألم تغيّر رأيك؟

قلت: لا.

فأخذ يدي ووضع إبهامي على (الاستنمبة) ثم أخذ بإبهامي فوضع بصمتي على الورق أكثر من مرّة، وأنا لا أدري على أي شيء يضعون بصمتي، ويستطيعون أن يجعلوني أضع بصمتي على اعتراف بقتل جون كنيدي.

عندما عدت إلى الزنزانة، فعلت كما كان يفعل الباقون رفعت يديّ. أُري الجميع أنّني بصمت، فأقبلوا عليّ يهنئونني ويباركون لي، بل إن بعضهم عانقني وجعل يبكي، وهو يقول: عقبى لنا.

في الطريق إلى الرباعيّة:

بقيت بعدما بصمت على تقرير التحقيق ثلاث ليال، ثمّ نُودي على اسمي في صباح اليوم الرابع، قال الجلاد بعد أن نادى باسمي وأسماء ثلاثة آخرين من الزنزانة:

– هاتوا حاجاتكم معكم.

فعرفنا أنّنا سننقل إلى الرباعيّة، وبدأ الشباب يهنئوننا، بينما كنّا نجمع ما بقي معنا من متاع، وأعطيت المنشفة التي أعطانيها رفيق المدرسة الذي التقيت به عند نقلي إلى الجماعيّة لأحد رفاق الزنزانة، وحملت حذائي وسترتي بعد أن لبست السراويل والقميص، ثمّ وقفت عند الباب مع الباقين، لم يستغرق الأمر دقائق قليلة، صحيح أنّنا لا نعلم إلى أي جحيم سنذهب، نعم إنّه انتقال إلى مجهول، ولكنّه على كلّ حال أفضل من البقاء هنا، فهو خطوة تالية نتخلّص بها من هذا المكان الفظيع.

عند خروجنا من الزنزانة وجدنا ثلاثة معتقلين آخرين قد سبقونا إلى الممرّ، حيث جاء الزبانية بسلسلة حديديّة طويلة بعد أن وضعوا في يد كلّ واحد منّا أسورة حديديّة، ثمّ أدخلوا السلسلة في أسورة كلّ واحد منّا فصرنا كشخص واحد مقيّد، فلا يستطيع الواحد منّا أن يتحرّك إلا بحركة الباقين. وقفنا أكثر من ربع الساعة في الممرّ، بينما كان الزبانية يجهّزون أوراقنا، ثمّ قادونا إلى الخارج. المفاجأة كانت بوجود مساعد الطبيّة (أبي أحمد) مع المساعد الذي كلّف بنقلنا، وكان يتصرّف بقسوة وغلظة أكثر ممّا كنّا نعهده منه، وكنت قد ظننت أنّ مهمته تقتصر على جلب الأدوية وتوزيعها على المعتقلين فقط.

حشرونا فوق بعضنا نحن الستّة في مقعد السيّارة الأخير مع أنّ المقاعد الأخرى فارغة، السيّارة كانت (فان) مغلقة على الغالب لونها رصاصيّ، قاد الحافلة المساعد أبو أحمد وجلس المساعد الآخر بقربه.

كان الجو بارداً جداً في الخارج، كنّا في أواخر شهر كانون الأوّل من عام ٢٠١٤، انطلقت بنّا السيّارة من فرع الأمن السياسيّ،

ولم يستغرق مرورنا بشوارع حمص العديّة التي رأيتها من خلال نافذة الزجاج الأماميّة – مع أنّه كان مطلوباً منّا أن نبقي رؤوسنا منخفضة باتجاه أرض السيّارة، ولكنّني جازفت ووجّهت بصري إلى الأمام، وأنا على حذر، فإذا ما حرّك المساعد رأسه كنت أعود للنظر إلى الأرض– دقائق قليلة، مع أنّ المسافة بين فرع الأمن السياسيّ والسجن العسكريّ في حمص (البولونيّ) قصيرة، لكنّني أحسست أنّها أقصر بكثير ممّا هي عليه في الواقع.

حفلة استقبال:

عند وصولنا إلى سجن (البولوني) خمنت أنّ المطر قد هطل منذ فترة قريبة، فالأرض ما زالت مبتلّة، والطين عالق بعجلات السيارات، أنزلونا من السيّارة بالطريقة نفسها التي أصعدونا بها، سِباب وضرب ودفع ووكز، صعدنا درجاً صغيراً، ربّما أربع أو خمس درجات، ودخلنا من باب المبنى لنجد أنفسنا في قاعة كبيرة، في آخرها طاولة يجلس عليها أحد المساعدين ويضع أمامه بعض الأوراق، وصينيّة فيها إبريق شاي وكأس (متّة)

وبينما كنّا نقف مشدوهين، كانت تجري أمامنا مشاهد العناق والقبلات والسلامات بين المساعدين، فكّ المساعد أبو أحمد قيودنا، بينما كان الآخر يسلّم المساعد الذي يجلس خلف الطاولة أوراقنا، ثمّ طلبوا منّا أن نجلس القرفصاء، بدأ المساعد يناديا بالاسم، ونحن نتقدّم إليه، فيسألنا بعض الأسئلة تتعلّق بذاتيّة كلّ واحد منّا، ربّما ليتأكّدوا أنّ هذا الشخص الموجود هو نفسه صاحب الإضبارة.

وقّع المساعد على ورقّة الاستلام والتسليم، ثمّ ذهب مع المساعد أبي أحمد ترافقهما السلامات والتوديعات من مساعد الاستلام، لتبدأ حفلة استقبالنا، حيث جاء مساعد في أواسط الثلاثينات ومعه ثلاثة عناصر من المجندين، واضح أنّهم من شمال شرق سوريّة، فبشرتهم سمراء بالإضافة إلى لهجتهم المميّزة، وأعتقد أنّهم من المجنّدين الذين علقوا في جيش نظام عصابات بشّار بعد قيام الثورة، وربّما كان أهلوهم يذوقون من بطش وإجرام عصابات بشّار أكثر ممّا نتعرّض له الآن على أيديهم، ومع ذلك كانوا قساة غلاظاً، يحملون السياط و(النباريج) يضربوننا

بها، وكأنّما صاروا كالآلات لا يفكّرون ولا يشعرون ولا يحسّون، يقومون بما يطلب منهم بشكل آليّ، طلبوا منّا أن نخلع جميع ثيابنا ونضعها جانباً، وأوقفونا في طابور عراة إلا من الشورت الداخليّ، وتركونا هكذا بينما كانوا يتمازحون، حتّى جاء المساعد، فطلبوا منّا حمل أمتعتنا، ولم يسمحوا لنا بحمل الأحذية، وأمرونا بالمسير، وسار واحد منهم أمامنا، وآخر خلفنا، والثالث قريباً منّا، وبدأت موجة جديدة من الشتائم والضرب والرفس والوكز، دخلنا إلى الممرّ الرئيسيّ في السجن، ومن سوء حظنا كانوا في ذلك اليوم ينظّفون الممّرات، والجو بارد ونحن عراة، وهناك من يلهب ظهورنا بالسياط، خمّنت أنّهم كانوا يتردّدون بضربي، وضرب معتقل آخر كبير في السنّ، فلم أنل منهم إلا بعض السياط، بينما أذاقوا باقي المعتقلين من الشباب ما قدروا عليه من الضرب والرفس واللكم، صعدنا درجاً إلى الطابق الثاني، بينما كنّا نخوض في مياه التنظيف، مررنا في الطريق إلى آخر الممرّ، بثلاثة أبواب حديديّة ضخمة، علمت فيما بعد أنّها مهاجع العسكريين المعتقلين من المنشقّين

عن جيش عصابات بشار أو المتخلّفين عن الخدمة.

في آخر الممرّ كان يقف مجندان يحملان آلات حلاقة، تتصل بأسلاك طويلة معلّقة بالمصابيح الكهربائيّة، أوّل مرّة في حياتي أسمع مثل هذا الصوت لآلة حلاقة، كان كأنّه صوت سيّارة شاحنة، جثونا على الأرض قريباً من الحلّاقين، وصرنا نذهب واحداً واحداً إليهم، سألني الحلّاق كما كان يسأل الجميع – أظن أنّه مجند كحال الباقين–:

– من أين أنت؟

قلت له: من حمص.

هزّ رأسه من غير أن يتكلّم، فهو يعرف كلّ شيء، الجميع يعرفون كلّ شيء. حلقوا لنا شعر رؤوسنا ولحانا، وكانت شعورنا قد طالت بعد مضيّ أكثر من شهر في فرع الأمن السياسيّ، ثمّ حملنا ثيابنا، وساقونا إلى مهاجع المعتقلين في الطابق الأوّل، مع تكرار مراسم الاستقبال، وكان عدد المهاجع ثلاثة فرّقونا بينها، وكان نصيبي المهجع الأوسط.

في المهجع

بعد أن أغلق الجلّاد باب المهجع خلفنا، التفّ حولنا بعض المعتقلين يسلّمون علينا، ويسألوننا الأسئلة المعتادة، وجدت حوالي أربعة أو خمسة ممّن رأيتهم في زنازين الفرع قد سبقوني إلى هنا، كان المهجع مزدحماً جداً لدرجة أنّي شعرت ألا مكان لي فيه، فالمعتقلون لم يتركوا شبراً واحداً فارغاً وهم يتكدّسون متلاصقين، فبالإضافة إلى الفريقين اللذين احتلا المكان قرب الجدارين اليميني واليساري، كان هناك صفّ ثالث يشغل وسط المهجع، كان العدد يتراوح بين المئة والمئة وعشرة، يزيد وينقص قليلاً يوميّاً. العدد هنا معروف مضبوط، لأنّ هناك تفقّداً يوميّاً يجريه الضابط المناوب، حيث يمرّ على المهاجع برفقة بعض الجلّادين من صفّ ضباط وجنود، بحيث يصطفّ المعتقلون صفوفاً وهم جلوس، ويقوم شاويش المهجع بعدّهم، ثمّ يقدّم الصف للضابط المناوب الذي كان يدخل إلى المهجع بلباسه العسكريّ، وهو يختال في مشيته، فيقطع المهجع ذهاباً وإياباً ثمّ يخرج.

كان طول المهجع حوالي ٢٥ متراً تقريباً وعرضه حوالي ستّة أمتار، له باب حديديّ ضخم يمتدّ على طول الجدار، وفي داخله باب صغير يدخل المعتقلون ويخرجون منه، في آخر المهجع يوجد مغسلة فيها صنبور ماء واحد، ومكانان لقضاء الحاجة (تواليت)، لكلّ واحد منهما باب يرتفع عن الأرض قليلاً، أغلب الوقت كانت جورة أحدهما لا تصرّف المياه، بحيث تفوح منها الروائح الكريهة، فكان خارج الخدمة، في أعلى الجدار قرب السقف نافذة ضيّقة عرضها حوالي سبعين سم، تمتدّ على عرض المهجع، النافذة من غير زجاج ولها شبكة حديديّة من الخارج يدخل منها هواء شديد البرودة، ولولا الزحام في المهجع لكان البرد أكل من أجساد المعتقلين، كان في هذا المهجع في يوم من الأيام أسرّة، فوق بعضها، كسجن عدرا، لأنّ المرء يلاحظ آثارها على الجدران، ولكن من شدّة الزحام وكثرة المعتقلين تمّ الاستغناء عنها، ليتّسع المهجع لأكبر قدر ممكن.

في المهجع مصباحان كهربائيّان بضوء خافت، يتجمّع تحتهما

المعتقلون مساء كلّ يوم، حيث لا تنتهي المهمّة اليوميّة لتنظيف الثياب من القمل، يأخذ مجموعة من المعتقلين وعاء قذراً من أوعية الماء الكثيرة الموجودة قرب الحمام، ويضعون فيه قليلاً من الماء ويتجمّعون حوله، بحيث يلتقط المعتقل القمل من ثيابه، ويضعه في الوعاء، ثمّ يراق الماء بعد ذلك في جورة الصرف الصحيّ. عندما سألت: لمَ يفعلون ذلك؟!

أخبروني أنّ القمل عندما يتمّ قتله بالأظافر فإنّ بيوضه تبقى ويزداد انتشاره، فقتله غرقاً يمنع ذلك. والظاهر أنّ المعتقلين لم يلتزموا بهذا الأمر دائماً، ودليل ذلك أنّك لا تجد قطعة صغيرة من الجدار وعلى ارتفاع حوالي متر إلا وقد صُبغت بلون دماء القمل، لدرجة أنّنا كنّا نحتار أين نجد قطعة نظيفة ولو مقدار شبر لنتيمّم عليها عندما تنقطع المياه، فكنتُ أرى القمل يسبح في الوعاء حتّى يموت، رأيت أشكالاً كثيرة من الحشرات التي تنتشر على جسم الإنسان و ثيابه، كنت أراها أوّل مرّة في حياتي، بالإضافة إلى أنواع القمل التي قرأنا عنها في كتب المرحلة الابتدائيّة، كانت المياه تنقطع أغلب الوقت، وتأتي ساعة

أو ساعتين، فيملأ المعتقلون قوارير الزجاج الموجودة قرب الحمام، بالإضافة إلى وعاءين بلاستيكيين كبيرين أحدهما مثقوب يستخدمان للشرب فقط.

مُقَلِّمة الأظافر

ولمقلمة الأظافر شأن خاص في سجون عصابات الأسد، فقد كان الحصول عليها يتطلب استجداء الجلادين لعدة أيام، حيث يقوم شاويش المهجع بطلبها من الجلاد المناوب، ثمّ تمر الأيام فيعود الشاويش لطلبها وهكذا، والمشكل في الأمر أنّ المعتقلين لا يستطيعون الاستغناء عنها، لأنّ أظافرهم إن طالت وهم مضطرون لحكّ أجسادهم من قَرْصِ القمل والحشرات المرافقة له، وقليل من يصبر على عدم الحكّ، فإن حكّ المعتقل جسده بأظافر طويلة تقرّح مكان الحكّ، وصار وذمة، وهكذا حتى ينتشر في كلّ جسده، وربما كان ذلك سبب وفاته، بالإضافة إلى أنّه ينقل العدوى إلى غيره، حيث لا علاج ولا مضادات حيوية.

فكان اليوم الذي تصل فيه مقلمة الأظافر إلى المهجع يوماً احتفالياً خاصّاً، تكثر فيه الخصومات والمشادّات، وتتنقّل المقلمة بين الأيدي معزّزة مكرمّة، والكل يريد الحصول عليها قبل غيره، خشية أن يطلبها الجلاد فجأة، ويبقى بعضهم بلا تقليم، ومع كلّ ذلك تجد أجساد أغلب المعتقلين مليئة بالقروح والوذمات، ولقد خرجت من المعتقل وقد امتلأ جسدي بها، مع حرصي الشديد وصبري ومصابرتي على عدم الحكّ.

حضرة

كان مطلوباً من الجميع أن ينادي الجلّاد (العسكريّ المجنّد أبو شحّاطة) الذي يقف مناوباً عند باب الزنزانة بـ (حضرة)، والويل والثبور لمن لا يفعل ذلك، وكان جميع الجلّادين يشتركون بصفة القسوة والغلظة وكيل الشتائم القذرة للمعتقلين، وإن كانت المسألة نسبيّة، فبعضهم أشدّ قسوة من بعض.

كان المطلوب من جميع المعتقلين أن يجلسوا ساكتين من غير كلام، هكذا طوال الوقت، فإذا لم يلتزموا بذلك أو سمع الجلاد بعض الأصوات، كان يطلب من شاويش المهجع أن

(يعلّمهم)، بمعنى أن يحفظهم ويعطيهم أرقاماً، ثمّ بعد فترة يقول له: أين الذين علّمتهم؟ فإن ذكر عدداً – ثلاثة أو أربعة– أُخرجوا من الزنزانة وضربوا ضرباً شديداً بكبال الكهرباء على أيديهم، وربّما على جميع أنحاء أجسامهم، وربّما طلب منهم إخراج أيديهم فقط من (شراقة الباب) ثمّ يضربهم الجلاد من الخارج وهم لا يرون شيئاً، والمفارقة أنّه إن لم يقم شاويش المهجع بتعليم أحد كان يعاقب هو.

خلاف وخصومات ومنازعات

كان المهجع كما أسلفت مزدحماً بالمعتقلين بشكل مستمرّ، فلا يكاد يخرج اثنان أو ثلاثة إلا ويأتي أكثر منهم، وكان ما يقدّم من طعام لا يكفي المعتقلين الذين كانوا يتوزّعون مجموعات، كلّ مجموعة من ثمانية إلى عشرة، فكان الشاويش وبعض من يعاونه يقسمون الطعام على عدد المجموعات، طبعاً ولا يخلو الأمر من بعض المحاباة والتمييز، فكانت الخلافات والخصومات يوميّة بسبب توزيع الطعام، ضمن المهجع بشكل عام، وضمن المجموعة الواحدة بشكل خاص، فقد وجد صنف من المعتقلين

كانت تربية حزب البعث واضحة في سلوكهم، بحيث يلتزمون القاعدة المعروفة عند السوريّين في كلّ الأماكن التي يكون فيها تجمّعات، مثل المدارس والجامعات وخدمة العلم والمصانع وغير ذلك (عسكريّة دبّر راسك) ومعناها حصّل ما استطعت ممّا يقدّم للجميع بأيّة طريقة كانت، ولو كان على حساب باقي من يشترك معك في المكان نفسه، فتراهم يخطفون الطعام خطفاً، ويختارون القطعة الأفضل والأكبر، ولو كان على حساب إخوانهم في المجموعة، الذين يشاركونهم الهمّ نفسه في كلّ شيء بدءاً من المظلوميّة وانتهاءً بالتعذيب والقهر، ومثل ذلك يحصل أيضاً في أماكن جلوس المعتقلين، فبينما كنت تجد معتقلاً لا يجد مكاناً يجلس أو ينام فيه، كنت تجد آخر قد شغل مكان اثنين بالتواطؤ مع شاويش المهجع، ومثل ذلك في توزيع الأغطية، فبينما كان هناك من يضع (بطانيّة) تحته- وربما اثنتين - وفوقه واحدة، تجد معتقلاً آخر لا يجد ما ينام عليه، أو يتدثّر به، فكانت تنشأ الخلافات والخصومات التي لا تنتهي، ولعلّ هذا هو الهدف الخبيث الذي كان يسعى إليه من

قرّر أن يقلّل كل ما يقدّم للمعتقلين سواء كان طعاماً أو أغطية أو غير ذلك.

حمص وريفها

كان أغلب المعتقلين من حمص وريفها، وجدت معتقلين قد سبقوني إلى هذا المهجع من أولاد الحيّ الذي تربيت فيه، ومن باقي أحياء مدينة حمص، ووجدت معتقلين من زملاء العمل، ووجدت معتقلين من المدرسين الذين كنت أشرف عليهم، كان هناك معتقلون من كلّ ريف حمص السنّي، من القصير ومن الرستن ومن تلبيسة ومن دير بعلبة ومن تلكلخ ومن الحولة ومن المنطقة الشرقيّة، كلّ هؤلاء تمنيت لو أنّه عُرف عن أحدهم أنّه شارك بأعمال عسكريّة أو سياسيّة حتى، كانوا كلّهم ممّن قُبض عليهم لأسباب تافهة، فهذا بطاقته الشخصيّة مكسورة، وهذا اعتقلوه على أحد الحواجز، وهذا كان يريد إخراج جواز سفر، وهذا كان يحمل خضاراً في سيّارته، فاتهموه أنّه ينقلها للمسلّحين، وهذا كان يحاول مغادرة سوريّة عن طريق لبنان، وهذا قالوا له تشابه أسماء، وها هو معتقل منذ أشهر، وهذا

وجدوا في هاتفه المحمول أغنية ثوريّة، وهذا لا يعرف لماذا اعتقلوه من محلّه، وهذا موظف، وهذا طالب، وهذا عامل، وهذا تاجر، وهذا وهذا.... كانوا من جميع الأعمار تقريباً، صحيح أنّ أغلبهم من الشباب، ولكن فيهم أيضاً من تجاوز الستّين، والمضحك المبكي أنّ أحد هؤلاء كان ولده ضابطاً في جيش بشار برتبة ملازم أوّل، وهو ما زال على رأس عمله، ولم ينشقّ، ومع ذلك أمضى أشهراً وهو مُعتقل.

صداقات جديدة

في المهجع ينقسم المعتقلون جماعات، في الغالب بحسب المنطقة الجغرافية التي ينتمون إليها، فالمعتقلون من مدينة تلكلخ يتجمّعون معاً، ومثلهم أهل الرستن وهكذا، كنت أجد مع أغلب هذه المجموعات قواسم مشتركة من المعارف، بحكم طبيعة عملي كموجّه اختصاصيّ، أتنقل بين مناطق ريف حمص كلّه، فكنت أتنقّل بينهم أبادلهم أطراف الحديث، وأسألهم عمن أعرفهم من أهل منطقتهم، وأواسيهم وأواسي نفسي بهم، أحاول أن أصبّرهم، وأقوّي عزائمهم، وأزرع في قلوبهم الأمل بالفرج

والخلاص، وأخفّف ما استطعت ممّا يكون عادة من الحساسيّة بين أهل المدينة والريف، وبين أهل المناطق المختلفة، وقد أنشأت كثيراً من الصداقات الجديدة، وأحببتهم وأحبّوني، وما زلت أحتفظ لأكثرهم بذكرى طيّبة.

شاويش من رومانيا

شاويش المهجع كان حمصيّاً هاجر إلى رومانيا منذ سنوات قبل الثورة، وأقام هناك إقامة دائمة، وبعد قيام الثورة حضر إلى سوريّة ليتفقّد ما بقي له في سوريّة من ممتلكات، وترك زوجته الرومانيّة وأطفاله الصغار هناك، فاعتقله الأمن بعد خروجه من لبنان في طريقه إلى سوريّة، علماً أنّه لم يكن من أنصار الثورة، بل كان يلعن الساعة التي قامت فيها، ومع ذلك مضى على اعتقاله أكثر من شهرين، ولم يكن يملك مالاً، ولقد رأيته فيما بعد يستجدي السيجارة من المعتقلين، كانت له يد بيضاء عليّ، لأنّني عندما دخلت إلى المهجع لم أجد مكاناً أنام فيه، وليس من طبعي أن أزاحم أحداً أو أخاصمه، فجلست في زاوية ضيّقة في آخر المهجع، وعلى أغلب الظنّ أنّ أحد

المعتقلين الذين يعرفونني ذهب إليه وأخبره بعملي ووظيفتي، فرقّ قلبه عليّ، وأفسح لي مكاناً بقربه، بعد أن طلب من المعتقلين حوله أن يقتصدوا في أماكن نومهم قليلاً، و مع مرور الأيام لاحظت أنّه يحابي بعض المعتقلين دون الباقين، وخصوصاً ذلك الرجل الغنيّ الذي كان ينام بقربه، فيغضّ الطرف عن حيازته أكثر من بطّانيّة، حيث يضع واحدة تحته وواحدة فوقه وواحدة تحت رأسه، بينما كان بعض المعتقلين لا يجد بطانيّة واحدة، علماً أنّ تلك البطانيّات كانت قذرة ورائحتها كريهة، وتمتلأ بالقمل والحشرات، وقد كنت أنام على بطانيّتي وأتدثر بسترتي هرباً من رائحتها، لم يكن الشاويش شخصاً متوازناً، فقد كان يحابي عند قسمة الطعام بعض المعتقلين على بعض، ويغضب بلا سبب حقيقيّ، ويأخذ قرارات سريعة فيما يتعلّق بما يجري في المهجع، حاولت نصحه أكثر من مرّة، حتّى سألته مرّة:

- لمَ لا تصلي؟

وفي كلّ الحالات كان يحاول إيجاد مسوّغات واهية لما يقوم به، حتّى ضاق بي ذرعاً، وطلب منّي أن أنتقل من قربه. التقيت به

بعد ذلك عدّة مرات خلال مراحل تنقّلنا، كان آخرها في سجن عدرا قبل أن يتمّ توزيعنا على الأقسام، وكان قد تغيّر كثيراً فقد بدا لي في صورة أخرى غير التي كان عليها، فقد صار نحيفاً هزيلاً.

احملوه إنّه ميّت (عمار)

عمّار شاب دخل إلى المهجع بعدنا بأيام، كان قادماً من فرع المخابرات الجويّة في حمص، شاب من حي باب السباع، عمره قريب من الأربعين، طويل جسيم خفيف الظلّ يمازح من حوله، شاب ممتلئ حياة، يعمل موظفاً كسائق في المحافظة، لا يعرف لماذا اعتقل، مع أنّه كان مازال على رأس عمله في المحافظة إلى يوم اعتقاله.

بدأت تصرّفاته تتغير بعد عودته من جلسات التحقيق، صارت حركته بطيئة، فكان قليل الحركة دائم الاستلقاء، وبدأ يحدّث نفسه بصوت مرتفع، كان يتحدّث كأنّه في بيته، ينادي أولاده – عنده أربعة أولاد– يناديهم بأسمائهم، وفي بعض المرّات يصرخ عليهم، يقول لهم: – لمَ فعلت كذا؟ لمَ ضربت أخاك؟ لمَ؟ لمَ؟

بعض المرّات كان يتكلّم كأنما يحدّث زوجته بالهاتف: أعدّي فنجانين قهوة، أنا قادم بعد دقائق.

في بادئ الأمر تضايق باقي المعتقلين في المهجع من تصرّفاته، فقد ظنّوا أنّه يفعل ذلك متعمّداً ساخراً، ولكن بعد وقت قصير أدركوا أنّه يتصرّف من غير إدراك (فَصَل) فهو ذاهل عن المكان الذي هو فيه، يعيش خيالات وهلوسات يتصورها دماغه، كانت حالة معروفة عند المعتقلين وإن اختلفوا في سببها، بعضهم يقول هذا بسبب التعذيب والضغط النفسي الهائل الذي يتعرّض له المعتقل، وبعضهم يقول بل بسبب نقص التروية في الدماغ نتيجة قلة الطعام والنوم.

تطوّرت حالة عمّار فلم يعد يستطيع القيام، ثمّ امتنع عن الأكل، حاول رفاق المهجع أن يساعدوه على الوقوف، ولكنّهم لم يستطيعوا، عندها طلبوا من شاويش المهجع أن يطلب من الجلّاد (العسكري المناوب) أن يخبر الطبيب بأنّ هناك سجيناً في حال حرجة، لم يستجب أحد. في المساء زادت حاله سوءاً فجازف بعض الشباب، وبدأوا يقرعون باب المهجع بقوّة، وهم

يعلمون ما ينتظرهم بعد ذلك في حفلة تعذيب خاصّة.

جاء الطبيب- كان برتبة نقيب- وبعد السباب والشتائم، طلب من الشباب أن يخرجوه إلى الممرّ، فحمله أربعة ووضعوه على أرض الممرّ، وهو شبه عار، فجعل هذا الذي يُسمّى طبيباً يضربه على يديه ورجليه بـ كبل بلاستيكي (نبريج) وهو يصرخ بكل ما في قاموسه من الشتائم القذرة، ويطلب منه أن يتوقف عن التمثيل. الغريب أن عمّاراً لم يحرّك ساكناً، ولم يصرخ، بل لم يئن، طلب الطبيب من الشباب أن يعيدوه إلى المهجع، وهو يقول: ليس به شيء، إنّه يتمارض، إنّه يمثّل وأردف كلماته بما بقي في جعبته من الألفاظ القبيحة.

حمله الشباب إلى داخل الزنزانة، وليس فيه شيء يتحرّك إلا عيناه، بات تلك الليلة على هذه الحال، وفي ضحوة اليوم التالي صرخ بعض الشباب حوله: (يمكن عمّار مات يا شباب) وتجمّع رفاق المهجع حوله، وبدأ الذهول على الجميع، هذا يبكي، وهذا يهذي: — ما أرخص الإنسان؟!

قرعوا الباب وأخبروا الجلاّد بأنّ سجيناً قد مات، لم يأت

الطبيب إلا بعد أكثر من نصف ساعة، ورفاق المهجع مذهولون، هذا يقرأ سورة (يس) وهذا يدعو وهذا مدهوش يهذي. حملوه خارج المهجع، ووضعوه على الأرض، سمعنا صوت الطبيب الحاقد يقول: احملوه إنّه ميّت.

قلت في نفسي التي تكاد تنفجر ألماً وكمداً: كيف يمكن للإنسان أن يصل إلى هذا المستوى من الوحشيّة والإجرام؟! هل فعلاً درس هذا المتوحّش الطبّ في الجامعات؟! ما الذي حوّله إلى مسخ يمثّل دور القاتل المأجور، يقتل بدم بارد دفاعاً عن ديكتاتور؟! ثمّ تذكّرت أنّ هذا الديكتاتور الذي يقتل هذا المسخ من أجله الآخرين درس الطبّ أيضاً في يوم من الأيام (كما يقولون) لقد قتل هذا الطبيب من السوريين حوالي مليون إنسان، فكيف ذلك؟! والحقيقة أنّ من رضع الحقد والكراهية والاستعلاء على إخوانه من بني الإنسان منذ نعومة أظفاره لا يؤثر فيه طبّ ولا علم ولا غيرهما.

القصة واحدة والاختلاف في التفاصيل

ذكرت سابقاً أنني لا أستطيع ذكر تفاصيل قصص المعتقلين

جميعهم، وأنّني أذكر نماذج فقط، ولكن في الغالب القصّة واحدة والاختلاف في التفاصيل، فالمعتقلون كانوا من النّاس العاديّين الذين ليس لهم أيّ نشاط سياسيّ أو عسكريّ، ولا نستطيع أن نقول إنّهم معارضون، وإن كانوا يكرهون نظام عصابات الأسد، ويتمنّون أن ينزاح كابوسه عن صدورهم، ولكنّهم كانوا يعيشون في مناطق سيطرته، ولم يكن بمقدورهم القيام بأيّ نشاط يمكن أن يدلّ على أنّهم معارضون، ولكنّهم اعتقلوا على الحواجز عشوائيّاً أو بحجج واهية، وأجبروا تحت التعذيب على الاعتراف بكلّ أنواع الجرائم الجاهزة في فروع الأمن (تشكيل مجموعات مسلّحة ومهاجمة الحواجز والقتل والاغتصاب ودعم الإرهاب وتمويله والتحريض عليه أو إيواء إرهابيّين) وهذا سلوك نهجه نظام عصابات بشار انتقاماً من الحاضنة الشعبيّة للثوار، الذين لم يتصوّر هؤلاء المستبدّون – رغم كلّ الإجراءات القمعيّة والتدابير الأمنيّة– أنّهم يمكن أن يثوروا عليهم، كما أرادوا من فظاعة التنكيل وقسوته وشدّة البطش، إرهاب وتخويف باقي أفراد الشعب السوريّ، الذين يسمعون

أخبار هذا التنكيل، من القلّة القليلة من المعتقلين التي كانت تنجو، إمّا بدفع الرشوة ممّن يملك المال، أو بتدخّل بعض المتنفّذين الذين تجمعهم المصالح مع نظام عصابات بشار.

جلسة تحقيق جديدة

كان المعتقل يمكث في المهجع من خمسة عشر إلى عشرين يوماً بعد وصوله من الفرع الذي كان فيه، يجتمع المعتقلون في هذا المكان الذي يُسمّى اللجنة الرباعيّة بعد اعتقالهم في فروع الأمن لمدد مختلفة، فهناك معتقلون من جميع فروع الأمن السياسيّ والعسكريّ والجويّ وأمن الدولة، ويحدّثون بعضهم بما مرّ عليهم من تنكيل وتعذيب ومآسٍ في كلّ فرع، ويسأل بعضهم بعضاً عن الأصدقاء والأقرباء الذين يظنّ أنهم كانوا في هذا الفرع أو ذاك، وعندما كنّا نسمع ما كان يجري في باقي الفروع وخصوصاً فرعي الأمن العسكريّ والجويّ، نظنّ أنّنا كنّا مرفّهين مع كلّ تلك المعاملة الوحشيّة والإجرام، فقد حدّثونا بما يشيب له الولدان من أنواع التعذيب والتنكيل التي تعرّضوا لها، أو رأوا من تعرّض لها.

يمكث المعتقل هنا هذه المدّة – ربّما تطول أو تقصر بحسب عدد المعتقلين– ثمّ يخضع لجلسة تحقيق جديدة، وربّما جلستين أو ثلاث، وربّما أكثر، يحقّقون معه من جديد كأنّما اعتقل اليوم، يخرج من كلّ مهجع خمسة معتقلين أو ستّة كلّ يوم، فإذا زادت أعداد المعتقلين في المهاجع كانوا يخرجون أكثر من ذلك، كان المعتقل يفرح عندما يُنادى باسمه للخروج لجلسة التحقيق، مع أنّه يعلم أنّه سيضُرب ويعذّب وينكّل به، لأنّه بخضوعه لهذه الجلسة يقطع مرحلة أخرى من مراحل الطريق إلى سجن عدرا المدنيّ – إن وصل إلى هناك سالماً– أغلب المعتقلين يعودون من جلسة التحقيق هذه وقد تركت السياط والعصيّ آثارها على أجسامهم، وربّما على وجوههم، كنّا نسمع أصوات تعذيبهم وصراخهم في المهجع مع أنّ غرف التحقيق تبعد أكثر من عشرين متراً عنه.

عندما يعود المعتقل من جلسة التحقيق يستقبله الباقون بالعناق ويساعدونه ويحاولون التخفيف عنه، ويباركون له، مع الأسئلة المعتادة عن سير مجرى التحقيق، ثمّ يمكث المعتقل هنا بعدها

أيّاماً – ربّما خمسة وربّما عشرة– بحسب ما تقرّره إدارة السجن، ثمّ ينقل ليعرض على الضابطة العدليّة – على الغالب هذا هو اسمها– وسأتحدّث عنها لاحقاً.

في غرفة تحقيق اللجنّة الرباعيّة

يخمّن المرء متى سيأتي دوره إلى جلسة التحقيق، من ملاحظة عدد الأيّام التي قضاها في المهجع، ومن سؤال من سبقه من رفاق المهجع عن عدد الأيّام التي قضاها قبل أن يخرج إلى جلسة التحقيق، بعد خمسة عشر يوماً تقريباً نُودي على اسمي للخروج إلى جلسة التحقيق، في العادة يكون في كلّ مهجع عدد كبير من العصائب التي تشدّ على أعين المعتقلين قبل الخروج من باب المهجع، أكثر هذه العصائب سوداء من قطع قماش لثياب بالية، وضع شاويش المهجع على عينيّ واحدة من تلك الأعصبة، بينما التفّ حولي بعض رفاق المهجع يباركون لي ويدعون لي بالسلامة، كان من سوء حظّي أنّ العسكري الذي كُلّف بإحضاري من المهجع حاقداً، لم يكفّ عن ضربي ووكزي مع ضعفي وأنا أسير أمامه حتّى وصل بي إلى غرفة التحقيق، مع

أنّه مكلّف فقط بنقل المعتقلين إلى غرفة التحقيق.

معاملة جديدة

كانت في غرفة التحقيق طاولتان رأيتهما من تحت العصابة، يجلس خلف كلّ واحدة منهما مساعد، تحت الطاولة التي طُلب منّي أن أقف أمامها يوجد وشيعة كهربائيّة مشتعلة أحسست بدفئها مع أنّها بعيدة عنّي أكثر من متر ونصف، طلب منّي المساعد أن أجثو على ركبتيّ أمام الطاولة، كنت أسمع صوت المساعد الآخر وهو يحقّق مع معتقل آخر بوضوح، وكأنّما يحقّق معي، كان أكبر سناً من المساعد الذي يحقّق معي، عرفت هذا من صوته، بعد أن سألني الأسئلة المعتادة في أوّل كلّ تحقيق عن اسمي وعمري إلخ..، أعاد عليّ التّهم التي كُتبت في تقرير فرع الأمن السياسيّ بخصوص تمويل الإرهاب والتحريض على العنف، ولكنّني لاحظت أنّه لم يتوقّف كثيراً على التهمة الأبرز التي خرجت بها من فرع الأمن السياسيّ وهي ما يتعلّق بابني، وأحسست أنّه تعمّد ذلك، وبينما كان يسألني الأسئلة نفسها التي سبق وسألني إيّاها محقّق فرع الأمن

السياسيّ، كان صراخ المعتقل الآخر يكاد يصمّ أذنيّ، والمحقّق يضربه كيفما اتفق على وجهه ويديه ورجليه وظهره، وهو يصرخ: أخبرني عن أسماء المجموعة المسلّحة التي كنت تعمل معها؟ والمعتقل الشاب يئنّ ويحلف الأيمان المغلّظة أنّه لم يكن مسلّحاً، فيزيد المحقّق ضربه حتّى أَكبّه على وجهه، وبدأ يضربه بحذائه على وجهه ورأسه، وهو يقول له: ستعترف يعني ستعترف. لم أستطع أن أتمالك نفسي وأنا ضائع بين أسئلة المحقّق الذي أمامي، وبين صوت المحقّق الآخر، وصراخ المعتقل الذي يعذّب بوحشيّة، فما شعرت إلا والدموع تنساب من عينيّ، وتجري على خدّي، ثمّ بدأت بالنشيج، فاقترب منّي المساعد الذي يحقّق معي، قال:

– مالك؟ هل ضربتك؟ هل آذيتك؟

وهو يظنّني أبكي خوفاً، وإنّما بكيت على حال هذا المعتقل الذي يُدمي القلب، وهو شاب في أوّل عمره، يُضرب هذا الضرب الوحشيّ، ويُؤذى في جسده، ويهان، ولم يفعل شيئاً إلا أنّه ينتمي إلى أناس أرادوا أن يتحرّروا من عبوديّة نظام طائفيّ

ديكتاتوريّ مستبدّ.

أعادوني إلى المهجع بعد أقلّ من نصف ساعة، كان إحساسي يقول لي: إنّ شيئاً ما حصل، وقد رأيت من تحت العصابة التي على عينيّ المحقّق وهو يضع بقلمه خطوطاً تحت فقرات من محضر التحقيق الذي كان أمامه.

الضابطة العدليّة والإحالة على محكمة الإرهاب

بقيت بعد جلسة التحقيق حوالي عشرة أيام، وكنت أسمع المعتقلين الذين تمّ التحقيق معهم يتحدّثون بأنّ المعتقل يؤخذ بعد أيّام من انتهاء التحقيق في اللجنة الرباعيّة إلى مكان يسمّى (الضابطة العدليّة) حيث ينبغي أن يتمّ فرز المعتقلين بحسب جرائمهم، وإحالتهم على المحاكم الموكول إليها أمر متابعة قضاياهم، بحيث يمكن أن يحوّل المعتقل على القضاء المدنيّ، ولكن كما قالوا – شاهدت ذلك فيما بعد– يندر أن يحوّل أحد إلى القضاء المدنيّ، بل على الغالب يحوّل جميع المعروضين على الضابطة العدليّة والنائب العام إلى محكمة الإرهاب، إلا إن استطاع أحدهم أن يصل إلى أحد المتنفّذين هناك، ويدفع رشوة

كبيرة.

كما أسلفت سابقاً ينتظر المعتقل الخطوة التالية بفارغ الصبر، مهما كانت تحمل من مخاطر، لأنّه يتجاوز بذلك مرحلة في الطريق إلى سجن عدرا المدنيّ، الذي كان المعتقلون يتحدّثون عنه كأنّه فندق (خمس نجوم) بالنسبة إلى ما يرونه في السجن العسكريّ (البولونيّ) في حمص.

في الطريق إلى الضابطة العدليّة

كنّا حوالي عشرين شخصاً نودي بأسمائنا من المهاجع الثلاثة، وجمعونا في الممرّ، حيث تمّ إنزالنا إلى الغرفة التي وقفنا فيها أوّل مرّة عند قدومنا من الفرع، جلسنا على الأرض رغم البرد الشديد، ونحن في شهر كانون الثاني، بينما كان المساعد يُعِدّ أوراقنا، في هذه الأثناء وصلت سخرة الطعام إلى السجن، ونودي بعض المجندين لينقلوها إلى الداخل، كانت سيّارة نقل كبيرة محمّلة بالمواد الغذائيّة، تابعنا بأنظارنا ما فيها من طعام، صناديق بندورة وصناديق برتقال وربطات خبز وخيار وأشياء أخرى، قلت في نفسي أين يذهبون بهذا الطعام كلّه، إذا كان لا

يصل منها إلى المهاجع ما يسدّ رمق المعتقلين؟! طبعاً أنا أعرف الجواب، وكلّ سوري يعرف الجواب. وهو الذي يجري في مؤسسات الدولة كلّها، بدءاً من الجيش الذي يسرق ضبّاطه الكبار والصغار طعام المجنّدين ولباسهم، إلى أصغر مؤسّسة في الدولة، والسجن واحد من هذه المؤسّسات، بينما كنّا نتابع بأعيننا ما يجري أمامنا، رقّ لحالنا مساعد السخرة، فطلب من أحد المجندين توزيع رغيف خبز لكلّ واحد منّا، وأوّل مرّة منذ ٥٠ يوماً تقريباً أرى رغيف خبز طرياً من غير رائحة حموضة ترافقه، ثمّ طلب من مجنّد آخر أن يعطيَ كلّ واحد منّا برتقالة من صندوق أشار إليه، وهو صندوق برتقال رديء، يظهر أنّه كان إكمالاً للوزن، فحمل الصندوق ومرّ علينا واحداً واحداً، كان كلّ واحد يأخذ ما تقع عليه يده من الصندوق، جيّداً كان أم رديئاً، صغيراً كان أم كبيراً، لا يستطيع المرء تخيّل سعادتنا بهذه الوجبة، برتقالة مع رغيف خبز، خصوصاً وأنّنا قد أُنزلنا قبل توزيع طعام الفطور، مع معاناتنا في تقشير البرتقالة، ولقد رأيت من أَكَلَ البرتقالة مع قشرها، ربّما خوفاً من أن

يرجعوا فينتزعوها منه، لم نكد ننتهي من أكل وجبتنا تلك، حتّى جاؤوا بالسلاسل التي يربطون بها أيدينا، ثمّ أركبونا في سيّارة السجن مكدّسين فوق بعضنا كأنّنا صناديق خضار.

في الضابطة العدليّة

لا أدري كم مرّ من الوقت حين توقفت السيّارة، ولكن على الغالب ليس أكثر من عشرين دقيقة، أنزلونا من السيّارة قرب مبنى صغير من طابقين، بناؤه قديم وسط مساحة واسعة من الأرض، لا يحيط به بناء من جميع الجهات، وكأنّما استخدم هذا البناء قبل أن يكتمل إعداده لسكن الآدميين، أنزلونا قرب المبنى، فكّوا قيودنا، ثمّ أصعدونا على درج ضيّق، يظنّ المرء أنّه عمودي باتجاه السماء لضيق انفراجه، في أعلى الدرج يوجد باب حديدي صغير، دفعونا إلى الداخل، وأغلقوا خلفنا الباب. يكاد الظلام أن يخيّم في المكان الذي دخلنا إليه، مع أنّنا كنّا في أوّل النهار، الإنارة خافتة، وليس هناك نوافذ، أو ربّما كانت موجودة ثمّ أغلقت، كان المكان مربع الشكل واسعاً، ربّما تكون مساحته حوالي سبعين متراً مربعاً، تجمّع الموجودون فيه وهم

أكثر من خمسين سجيناً بعيداً عن الجدران، قلت في نفسي لعلّهم رقّوا لحالنا فتركوا لنا المكان قرب الجدران كي نسند عليها ظهورنا، ولكن ما إن اقتربت من الجدار حتّى أدركت السبب، لقد كانت الأرض مبللة، والجدران تنزّ الماء، ممّا جعلهم يبتعدون عنها، ولما لم يكن هناك مكان آخر اضطر الوافدون الجدد – سواي– إلى الجلوس قرب الجدران رغم بلل الأرض والجدران، بينما قضيت أغلب وقتي واقفاً لا أجلس إلا حينما كان يصرخ فيّ شاويش المهجع، وهو شاب نصيري موالٍ للنظام، كان يشكّل مع ثلاثة آخرين من مثل حاله شبه عِصابة صغيرة، تتصرّف في المهجع كما تشاء، لم أعرف سبب اعتقالهم، ولكن على الغالب هي جرائم جنائيّة كالقتل والخطف والاغتصاب، مستغلّين الفوضى العامّة في كلّ أجهزة النظام. كانوا يشاركون الباقين الطعام الذي يقدّم للمعتقلين، ويشترون ما يشاؤون من الطعام عندما يأتي مساعد الندوة. يشترون بسكويتاً وراحة وعصيراً ومياهاً غازيّة وخبزاً وتبغاً وسردين وتونة وجبنة ومرتديلا وصابوناً وشامبو وغير ذلك. كانوا ينفقون نقوداً كثيرة جداً،

وخصوصاً أنّ ثمن الأشياء يتضاعف عدّة مرّات هنا، قلت في نفسي لعلّ بعض معارفهم هنا يجلبون لهم المال، لأنّهم أخذوا أموالنا كلّها في الفرع بعد اعتقالنا ووضعوها في الأمانات، وهي تنتقل معنا من مكان إلى مكان.

كان الجوّ العام مرعباً وكئيباً جداً، توزّع المعتقلون جماعات متفرّقة بعيداً عن الجدران، عندما تعبت من الوقوف جلست بقرب معتقلينِ يجلسان قرب بعضهما من إحدى قرى ريف حمص، تبادلنا أطراف الحديث حول أسباب الاعتقال وتشاركنا ما قدّم لنا من طعام.

كان من بين المعتقلين رجل مصاب مستلق لا يستطيع الحركة، يرعاه معتقل آخر من مدينة حمص، أخبرني أنّه كان من نزلاء سجن حمص المركزي قبل أن يجلبوه إلى هنا، حدثني عن ظروف سجن حمص المركزي واكتظاظه بالمعتقلين لدرجة أنّه ليس فيه مكان لوافد جديد.

لا أدري ما الذي أصابني في تلك الليلة؟! أحسست أنّني في مكان آخر، عشت ساعات لا أشعر بمن حولي، كنت أرى

أشخاصاً آخرين، وأتخيل أحداثاً ومواقف علمت فيما بعد أنّها لم تكن، بدأت أشعر بأنّني انفصل عن الواقع رويداً رويداً، خمّنت بعد ذلك أنّ هذا من التعب وقلّة النوم والطعام، ربّما صار عندي نقص تروية في الدماغ، استمرّت حالي هذه يوماً وليلة، ولولا أنّنا غادرنا هذا المكان في اليوم الثالث بعد أن نمنا هنا ليلتين لكنت لحقت بـ (عمار أجناد) رحمه الله.

كنت أتوقّع أن نُعرض على أحدٍ ما هنا، ليقرّر المحكمة التي سنحال عليها، وكما قلت سابقاً في الأصل هنا يحوّل المعتقلون إلى المحاكم المتخصّصة، عسكريّة، مدنيّة، إرهاب إلخ..، ولكن لما كان أغلب المعتقلين لا جرائم مدنيّة ولا جنائيّة لهم، وإنّما هم من المدنيّين الذين تمّ سوقهم إلى هنا على فرض أنّهم معارضون لنظام عصابات الأسد، وهم لا يعلمون جريمتهم، سوى التي بصموا عليها بعد التعذيب في فروع الأمن واللجنة الرباعيّة، بل إنّ كثيراً منهم لا يأبهون أبقي نظام الأسد أم سقط، يريدون فقط أن يأمنوا على أنفسهم وأولادهم بعد الذي رأوه من مآسي وآلام. بقينا هنا يومين تقريباً رأينا فيهما ألواناً جديدة من

المعاناة، ولم نُعرض فيهما على أحد.

كانت المناداة بأسمائنا في صباح اليوم الثالث صدمة فرح أعادتني إلى الواقع من جديد، خرجنا من هذه الزنزانة الكريهة، وتركنا خلفنا إخواناً لنا في معاناة لا يتصوّر المرء فصولها إلا في الخيال، ولا يعلم بحالهم إلا الله تعالى، أركبونا مكتظّين فوق بعضنا في سيارة صغيرة، لفت انتباهي أنّهم أصعدوا معنا امرأة معتقلة أجلسوها في مقدمّة السيّارة، بينما كنّا نقف على أقدامنا، كانت المرأة هادئة واثقة غير مبالية بما نحن فيه.

خيوط الأمل

لا أدري كم سارت بنا السيّارة، ولكن على الغالب لم تكن أكثر من كيلو مترات معدودة، ربّما سارت السيّارة بنا حوالي عشر دقائق، أنزلونا إلى مبنى له درج يصل إلى باب عريض، وبعد أن مررنا بالإجراءات نفسها التي يقومون بها كلّ مرّة من فكّ القيود وتفقّد الأسماء إلخ..، وضعونا في صالة هي شبه قبو، جدرانه قذرة جداً، كنّا أول الواصلين إليه، ثمّ بدأ معتقلون آخرون يتوافدون إليه من أماكن أخرى، حتّى صرنا فيه حوالي

الخمسين معتقلاً، علا هرجُهم حتّى لا يكاد المرء يسمع من بقربه، هذا التقى بقريبه الذي لم يره منذ كذا، وهذا بصديقه، وهذا بابن حيّه أو قريته، وهذا برفيق زنزانته بأحد الفروع، وكثُر العِناق والقبلات و تبادل الآلام والآهات.

شبيحة بيننا

كان من بين الواصلين من سجن حمص المركزي مجموعة لا يشعر المرء أنّهم كانوا في سجن او معتقل، أجسامهم ممتلئة بل مترهلّة من السِّمَنِ، ولا يظهر عليهم أيّ أثر من آثار المعتقلات والزنازين، كان أكبرهم سنّه قريب الستّين، يتحدّث كأنّه رئيس عصابة، بينما كان الباقون يتكلّمون كأنّهم عناصر أمن أو شبّيحة على أحد الحواجز، صادف جلوسي بقربهم، لأسمع طرفاً من حديثهم، وقد لفت انتباهي لهجتهم المميّزة التي يُعرف بها الموالون لنظام عصابات الأسد، فهمت من حديثهم أنّهم معتقلون في قضايا جنائيّة كالقتل والسرقة والابتزاز وغيرها، وعلى الغالب خصومهم فيها من الموالين، لأنّهم إن كانوا من المعارضين فلا أحد يسأل عندها، بل لا تكون هناك قضايا

أصلاً، لاحظ كبيرهم أنيّ أصيخ السمع إليهم، فقال لي:

- (منّين الأخ)؟

قلت له: من باب الدريب.

فنفخ نفخة حقد وقهر، وهو يقول:

- (روّحت اتنين من أحبّ عناصري هناك).

ثمّ تابع حديثه مع باقي أفراد عصابته، وهو يقول:

- (لا تخافوا، لا تخافوا، كلّها ساعات ومنكون بالزهرا).

محامي

بعد مُضي أكثر من ساعة فُتح باب الصالة الذي يشرف على داخل المبنى، وظهر من خلاله عسكري يقول:

- من أراد أن يشتري طعاماً أو شراباً أو تبغاً (دخاناً) فعندنا هنا ندوة.

اندفع بعض المعتقلين الذين يملكون مالاً باتجاهه يتزاحمون مع أنّهم كانوا قلّة، بينما كان يخرج مساعد بين الفترة والأخرى، ويقول:

- فلان، تمّ توكيل محام لك.

ويناديه للتوقيع، فيخرج المعتقل ويعود بعد وقت قصير معه مال، أخذه من المحامي أو من أقربائه الذين دفعوا رشوة كبيرة للوصول إلى هنا، بينما كان باقي المعتقلين ينظرون إليه في حسرة وألم، مضى أكثر من ساعتين على هذه الحال، خطر في بالي خلالها أنّ زوجتي ربّما تكون قد وكّلت لي محامياً.

أطلّ المساعد وهو ينادي باسمي، ويردفه:

- لقد تمّ توكيل المحامي فلاناً عنك.

قفزت من مكاني، وقد كدت أطير من الفرح، ونسيت جوعي الذي كان يعذّبني، وأنا أراقب المعتقلين الذين خرجوا قبلي، وعادوا يأكلون سندويش الفلافل ويشربون المياه الغازيّة، وكانت نفسي تتوق للفلافل، وقد ملأت الرائحة المكان الضيّق الذي نحن فيه.

مشيت خلف المساعد خطوات فقط لأجد نفسي في غرفة صغيرة وكأنّما كانت جزءاً من الممرّ ثمّ قُطِعت بجدار، فوجئت بأحد أصدقائي الذين كانت تربطني بهم صداقة عاديّة، يجلس أمام مكتب المساعد، لما رآني قام واعتنقني وسلّم عليّ بحرارة،

وهو يسألني عن حالي، وأنا أجيب بكلمة واحدة: الحمد لله. وأناديه بكنيته، قال لي: اطمئنَّ، أم عبد الرحمن والأولاد بخير، والجميع يسلّمون عليك.

ثمّ قال لي: هل تحتاج شيئاً؟

قلت له: أنا جائع أريد سندويشة فلافل.

قال: الآن عندما أخرج سأرسلها إليك.

قلت: اجعلهم خمسة.

قال لي: هل تريد مالاً؟

قلت: نعم.

فأعطاني خمسة آلاف ليرة، وكنت أتوقع أن يعطيني ألفاً أو ألفين. ثمّ قال لي: لا تخف، وكّلنا لك محامياً، وقريباً ستخرج بإذن الله تعالى.

ثمّ توجه بكلامه إلى المساعد:

– هذا وصيّتك يا أبا فلان، لا تجعله يخرج من هنا قبل أن يرى إضبارته.

ثمّ أخرج من جيب بدلته الأنيقة جداً مبلغاً ماليّاً جعل يعدّه

أمامي، خمّنت أنّه عشرون ألف ليرة، أعطاها أمامي للمساعد الذي أخذها منه، غير آبه بوجودي، وكأنّ الأمر عاديٌّ.

ثمّ توجّه المساعد بكلامه لي: اليوم عندما ينتهي الدوام سأريك الإضبارة، لا تخف، لو كانت تهمتك من اختصاص النائب العام لخرجت من هنا، ولكن لابدّ من بعض الإجراءات الروتينيّة، وستخرج أول وصولك إلى سجن عدرا، لقد تمّ تعديل إضبارتك، وسأريك إيّاها اليوم آخر الدوام.

سمعت كلامه وأنا شبه مذهول، أريد أن أصدّقه، ولكنّ القلق كان قد تمكّن منّي بقوّة، ثمّ أشار إلى دفتر كان أمامه وهو يقول:

- تعال وقّع هنا على توكيل المحامي.

رجعت إلى الصّالة التي امتلأت بدخان لفائف التبغ، تحلّق حولي بعض المعتقلين يسألونني - بينما كاد أحد أفراد عصابة الشبّيحة أن يصدمني، وهو يركض خلف زجاجة بلاستيكيّة فارغة من علب المياه الغازيّة كانوا يتقاذفونها بأرجلهم - أجبت من سألني بكلمات عامّة: وكّلت لي زوجتي محامياً.

قال أحدهم: لا حاجة لك الآن إلى محام، يحتاج المعتقل محامياً عندما يصل إلى سجن عدرا، حيث تُعرف تهمته.

علمت فيما بعد أنّ توكيل المحامي في هذه المرحلة يكون لكي يصبح واسطة وسمساراً لدفع الرشاوى.

مرتديلا بدل الفلافل

لم يطل الوقت حتّى خرج المساعد ونادى باسمي، وأعطاني كيساً فيه عدّة سندويشات مع بعض زجاجات المشروبات الغازيّة، كانت فرحتي بها كبيرة، ولكنّني صدمت حين وجدت في الكيس خمس سندويشات (مرتديلا)، وأنا أشتهي الفلافل بشدّة، ويا لها من سندويشات؟! فيها قليل من اللحم، وعدّة قطع بندورة صغيرة، ومع ذلك كانت نعمة عظيمة، يكفي أنّه خبز طريّ، أخذت واحدة من الكيس وأعطيت الباقي للإخوة الذين تحلّقوا حولي.

إضبارتي

كادت الصالة أن تفرغ من المعتقلين الذين كانوا يُعَادون إلى أماكن معتقلاتهم تباعاً، وشارف الدوام على الانتهاء، وبدأت

الوساوس تراودني: هل نسي المساعد أن يطلبني ليريني إضبارتي بعد أن أخذ ما أخذ؟! لم يطل قلقي كثيراً، حتّى ناداني المساعد، وطلب منّي أن أجلس قليلاً ريثما تخفّ حركة الداخلين والخارجين إلى غرفته، بينما خرج هو قليلاً وعاد يحمل بيده أوراقاً، وضعها على الطاولة ثمّ قال لي:

– تعال انظر إلى هذه الخطوط الحمر، لقد أزيلت قضيّة ابنك من الإضبارة.

رأيت بعض الخطوط الحمراء على الورقة التي أمامه، ولكن لم أكد أتبيّن حقيقة ما كتب فيها، فقد دخل شخص إلى الغرفة، اضطرب المساعد قليلاً، ثمّ تابع:

– اطمئن مسألة إطلاق سراحك مسألة وقت فقط، ريثما تصل إلى سجن عدرا.

العودة إلى سجن حمص العسكري (البولوني)

أعادونا إلى سجن حمص العسكريّ (البولونيّ) الذي جعلوا مركز اللجنة الرباعيّة فيه، وبعد إجراءات الاستلام والتسليم المعتادة، وما يرافقها من إذلال وإهانات، أخذوا منَ المعتقلين ما كان

معهم من مال أعطاهم إيّاه أقرباؤهم أو المحامون في مقرّ النائب العام، ووضعوه عندهم في الأمانات، وأعطوا كلّ واحد ورقة صغيرة بقيمة ماله، ثمّ أصعدونا إلى الطابق الثالث حيث توجد مهاجع الانتظار، وحيث تختلف المعاملة قليلاً، فيسمح للمعتقل بشراء بعض أنواع الطعام كالبسكويت والراحة والمشروبات الغازيّة والتبغ (الدخان) وبعض أنواع الحلويات، من ماله الذي أخذوه منه، حيث يعطيهم

الوصل فيسجلوا عليه قيمة المشتريات والباقي من ماله.

يبقى المعتقل في هذا المهجع أيّاماً ربّما تزيد على العشرة، ينتظر نقله إلى سجن القابون العسكريّ في دمشق.

وإذا كانت المعاملة تختلف قليلاً، فإنّ الظروف العامّة لا تختلف في مهجع الانتظار عن باقي المهاجع في شيء، فالمياه قليلة ومقطوعة أكثر الوقت، وعندما تأتي يملأ المعتقلون زجاجات المشروبات الغازيّة الفارغة كلّها، وهي تزيد على المئة، ومع ذلك لا تكفي، ودورات المياه قذرة، وحالتها مزرية، والزحام شديد، حتّى ليظنّ القادم ألا مكان له ينام فيه، وصل عدد المعتقلين في

المهجع في بعض الأيام إلى ما يزيد عن المئة وعشرة، كما أنّ (تفلية) القمل وحكّ الجرب هو الشغل الشاغل للمعتقلين، ولكن ما يعزّي المرء قليلاً هو الانتهاء من جلسات التحقيق وحفلات التعذيب، بالإضافة إلى أنّ المعتقل على أمل النقل بين ليلة وضحاها إلى سجن القابون العسكريّ في دمشق كمرحلة أخيرة ما قبل الوصول إلى سجن عدرا المدنيّ.

عبوديّة من نوع آخر

من المآسي التي حفرت آثارها في نفسي ما حصل بعد أن أتيح للمعتقلين شراء التبغ (الدخان)، حيث أقبل أكثرهم على شرائه بنهم عجيب، ولك أن تتصور المهجع وقد عجّ بدخان السجائر حتّى يكاد يحجب الرؤية، وفيه المريض والضعيف والجريح. ما يحيّر العقل أن ترى رجلاً صبر على عدم التدخين حوالي شهرين تراه الآن يذلّ نفسه من أجل سيجارة، إذا أتيحت له الفرصة للحصول عليها، هذا ما رأيته بأمّ عيني فلقد بقي أكثر من ٩٠٪ ممّن كانوا معنا في المعتقل من غير تبغ حوالي الشهرين من غير شكوى من عدم التدخين، ثمّ لما

أتيحت لهم الفرصة للتدخين رأيت ابن الخمسين والستين يذلّ نفسه للشاب الصغير من أجل سيجارة، بل كان أكثرهم يحرم نفسه من فرصة الحصول على طعام ليشتري علبة سجائر، عندما رأيت ذلك تذكّرت قول أحد وجوه الحصار: إنّ أحد أهم أسباب خروج المحاصرين من حمص القديمة كان التدخين، وما نتج عن محاولات الحصول عليه من مآسي يذهل المرء حين يسمع تفاصيلها.

القصص نفسها

بعد هذه المدّة التي قضيتها متنقّلاً من مكان إلى مكان، وبعد رؤية مئات المعتقلين في أماكن عدّة، لم أعد بحاجة إلى سماع قصص الاعتقال، فالقصص نفسها مع اختلاف الأشخاص، فالاعتقال عشوائيّ، القصد منه الانتقام من حاضنة الذين ثاروا ضدّ الظلم والطغيان، بالإضافة إلى معاقبة الباقين وإذلالاهم، وهم يسعون للإفراج عن أقربائهم المعتقلين، وابتزاز أموالهم لدفع الرشاوى على وعود أغلبها كاذب، وكم وكم باعت امرأة مصاغها، بل ربّما بيتها لتدفع رشوة لأحد الشبّيحة من أجل

إخراج زوجها أو ابنها أو أخيها، فسرقه وخدعها، وقبل كلّ هذه الأسباب تخويف بمصير مثل المصير لكلّ من تسوّل له نفسه أن يقول: لا، للظالم المستكبر.

إلى سجن القابون العسكري بدمشق

نسيت كم مكثنا في سجن حمص العسكري بعد عودتنا من الضابطة العدليّة والنائب العام، ولكن يقيناً أقلّ من عشرة أيام، ثمّ نقلونا –كنّا حوالي الخمسين– إلى سجن القابون العسكريّ سيء السمعة، بسيارة تشبه برّادات نقل المواد الغذائيّة، كدّسونا فيها كصناديق الخضار والفواكه، بعد أن ربطونا جميعاً بسلسلة واحدة في إجراءات تشبه الإجراءات السابقة.

استغرق الطريق أكثر من ساعتين من المعاناة، ولكن مع ذلك كنت ألاحظ الارتياح على الوجوه المنهكة، وكم راودتني أفكار جميلة ونحن نمرّ قريباً من المناطق التي حرّرها الثوار من نظام عصابات الأسد: لو أنّ الثوار هاجموا هذه السيّارة، وخلّصونا من الجحيم الذي نحن فيه، ولم يخرجني من تخيّلاتي شبه المستحيلة هذه إلا توقّف السيّارة، تعلن وصولنا إلى سجن

القابون العسكريّ.

بقينا أكثر من عشر دقائق في السيّارة بعد توقفها، قبل أن ينزلونا بالطريقة المعتادة نفسها، وكأنّما جزء من عقيدتهم العسكريّة إذلال الآخرين، طبعاً سبّ وشتم وضرب وركل ووكز، المعتقل وحظّه من هذه المفردات وغيرها، وربّما يكون كبر سنّ المعتقل عامل تخفيف في ذلك.

بعد إجراءات الوصول والاستلام والتسليم التي استغرقت أكثر من ساعتين، في جوّ شديد البرودة، ونحن لا نلبس سوى القليل من الثياب، أنزلونا إلى القبو، حيث مهاجع الاعتقال التي لا تختلف ظروفها عن ظروف باقي المهاجع والزنازين، لاحظت أنّ المهجع الذي نزلنا فيه قد تمّ تنظيفه حديثاً، كما أنّهم جلبوا لنا بطانيّات ظننّا أول الأمر أنّها نظيفة، ولكن بعد استخدامها تبيّن لنا أنّ القمل وأقرباءه من الحشرات المتحالفة معه قد عشّشت فيها، كنّا كما أسلفت حوالي خمسين معتقلاً، يكاد المهجع لا يسعنا، ومع ذلك أحسسنا أنّه أفضل ممّا سبق من حيث الزحام، ولم ندرِ ما الذي خُبئ لنا، فلم تكد تمرّ ساعة أو

ساعتين حتّى بدأ قادمون جدد زاد عددهم على الخمسين أيضاً ينضمّون إلينا، اكتشفنا فيما بعد أنّهم سبقونا إلى المهجع وباتوا ليلة أمس فيه، ولكنّهم أُخذوا ليعرضوا على الضابطة العدليّة والنائب العام في ريف دمشق، ثمّ أعيدوا إلى هنا. فصرنا في المهجع أكثر من مئة، وهو صغير جداً بالنسبة إلى ما سبق من المهاجع، فلا يكاد المعتقل يجد مكاناً يجلس فيه لا لينام.

من الأمور التي خفّفت قليلاً من الظروف السيئة في المهجع نوع الطعام الذي قدّم لنا، علماً بأنهم كانوا لا يقدّمون لنا إلا وجبة واحدة في اليوم، فقد كان أفضل ممّا قدّم لنا في باقي مراحل الاعتقال، حيث أكلنا خبزاً طريّاً، وبعض قطع البندورة والخيار، مع بيض وبطاطا مسلوقين، صحيح أنّ الكميّة قليلة جداً بالنسبة للعدد الموجود ولكنّها تؤكل.

هكذا ربّينا

أراد شاويش المهجع – وكان من منطقة الزبداني من ريف دمشق، وهو جامعي من أسرة عريقة وميسورة الحال، وهو لا يعرف لماذا اعتقل، وكان من الذين ذهبوا صباحاً للضابطة

العدليّة ثمّ عادوا ليلتحقوا بنا- أن ينظّم توزّع المعتقلين داخل المهجع، فطلب من الجميع أن يفسحوا المجال لكبار السنّ ليجلسوا قرب الجدران ويسندوا ظهورهم إليها، فما كان من الشباب إلا أن تزاحموا على الجدران، وتركوا كبار السنّ في الوسط، لا يجدون مكاناً يجلسون فيه.

في مساء إحدى الليلتين فتح باب الشرّاقة عسكريّ أو مساعد، لا أدري، ثمّ قال: عندنا في الندوة سندويش فلافل، فإن أردتم الشراء فاجمعوا النقود، فتزاحم المعتقلون حول الشاويش الذي جمع النقود من المعتقلين، ثمّ عاد العسكري بعد قليل وقال:

- هذه ثلاثون (سندويشة)، فأعطاه الشاويش ثمن الثلاثين سندويشة، مع أنّه جمع ثمن أكثر من سبعين، وقد استدان المعتقلون من بعضهم، وتذلّل بعضهم لبعض للحصول على واحدة، وكنت من بين الذين دفعوا ثمن اثنتين، وهنا ظهرت مشكلة كبيرة، كيف ستقسّم السندويشات، كان يكفي أن تقسّم كل سندويشة شطرين أو ثلاثة ويأخذ كلّ واحد شطراً، ويأكل جميع من دفع، ولكن لأنّنا ربيّنا في نظام حزب البعث

على الأنانيّة والأثرة وعدم مراعاة حقوق الآخرين، استحوذت مجموعة ممّن تدافعوا على كيس (السندويش) على أغلبها وتوازعوها بينهم، بينما جلس الباقون يراقبونهم، وقد علت الأصوات بالسباب والشتائم، وبدأ العسكريّ الجلّاد المناوب بالضرب على باب المهجع بقوة مستخدماً عصى، فكاد الصوت يصمّ آذاننا، ثمّ فتح شرّاقة الباب وهو يتفنّن بألوان السباب والشتائم وقال:

- الجميع واقفاً باتجاه الجدران، ويا ويلكم إن جلس أحد أو سمعت صوتاً.

علماً بأنّ في المعتقلين مرضى ومجروحين وكباراً في السن، بقينا هكذا أكثر من نصف ساعة، ثمّ بدأ كبار السنّ والضعفاء بالجلوس وقد أخذ منهم التعب أيّ مأخذ، مجازفين بعقوبة أقسى، بعد مضيّ نصف ساعة أخرى فُتح باب الشرّاقة، ووصل إلى آذاننا صوت سباب العسكري الذي كنّا نسمع صوته - بلهجته الموالية المميّزة- ولا نرى وجهه، لأنّنا في الحال العاديّة كان يطلب منّا أن نستدير إلى الجدار عند فتح الباب

أو الشرّاقة، فكيف ونحن في عقوبة. قال وهو يمنّ علينا: هذه المرة سأكتفي بهذا، ولكن يا ويلكم إن سمعت صوتاً.

الطريق إلى سجن عدرا

بقينا يومين في سجن القابون العسكريّ، وكان من المفترض – أن نبقى ليلة واحدة فقط- ولكن لم يجدوا سيارة تنقلنا إلى سجن عدرا- كما قالوا- لتزداد معاناتنا ليلة إضافيّة في سجن القابون، هي أشبه بالجحيم.

من أسوأ ما كان فيها على الصعيد الشخصيّ بالنسبة إليّ، كان كسر نظارتي التي كنت لا أستطيع (تفلية) القمل إلا بها، من شدّة الزحام، ولأنّنا كنّا ننام فوق بعضنا لم أشعر إلا والنظارة قد صارت شطرين، كانت بالنسبة إليّ مأساة زادت همومي همّاً.

روتين حتّى في الظلم والقهر

ولأنّني أحبّ أن أعرف كلّ شيء، سألت عن سبب إنزالنا بسجن القابون هذه الليلة، يعني كان بإمكانهم أن ينقلونا من سجن حمص العسكريّ (البولونيّ) إلى سجن عدرا مباشرة، فقيل لي: إنّ سجن عدرا مدنيّ، ولا يمكن النقل إليه من سجن

عسكريّ (البولونيّ) في محافظة أخرى، حتّى يتمّ تسليم المعتقل إلى سجن عسكريّ في المحافظة نفسها (القابون في دمشق) ثمّ ينقل ضمن المحافظة نفسها من سجن عسكريّ إلى سجن مدنيّ.

سيارات نقل الأغنام

في صباح اليوم الثالث وبعد تلكما الليلتين الفظيعتين، أخرجنا من الزنزانة بأسلوب وحشيّ -كما دخلنا- ركل وضرب وشتائم من الجميع، حتّى من الكاتب الذي ينظّم الجدول بأسمائنا، خرجنا من باب السجن لنجد سيارة شحن (برّاداً) تشبه التي نُقلنا بها من سجن حمص العسكريّ إلى هنا، حشرنا فيها أكثر من سبعين معتقلاً. لا يشبه وضعنا هذا إلا وضع الأغنام حين ينقلونها، وكنت أرى كيف ينقلون الأغنام وأنا طفل صغيراً، إلا أن الفرق أنّ الأغنام لا تربط بسلاسل حديديّة تجمعها كلّها.

مجزرة أسرى طالبان:

الشاحنة من الداخل ليس فيها إلا نافذة صغيرة في أعلى جدارها تسمح بمرور قليل من الضوء يشبه ضوء (النوّاسة)

وقليل من الهواء، طبعاً هي خالية من أيّ مكان يمكن الجلوس عليه، ولأنّ المعتقلين أكثر من قدرتها على الاستيعاب كانوا لا يكادون يجدون مكاناً للوقوف فكيف بالقعود، فكانوا يتكدّسون متلاصقين، عندما أدخلونا فيها لم يخطر على بالي إلا المجزرة التي تعرّض لها المئات من أسرى طالبان في أفغانستان، حين تركوا في مثل هذه السيارة ليموتوا خنقاً بعد أن أغلقت عليهم الأبواب من الخارج.

السيجارة بـ (١٠٠) ليرة

بدا الطريق الذي لا يتجاوز عدة كيلومترات كأنّه زمن طويل، حيث كنّا نميل فوق بعضنا يمنة ويساراً بحسب حركة السيّارة – ربّما كان السائق يتقصد ذلك– في جوّ حرّ شديد، مع أنّنا في شهر كانون الثاني، والأدهى من ذلك أنّ صوت بعض المعتقلين ارتفع وهو يقول: من يشتري سيجارة بـ (١٠٠) ليرة؟ ولا أدري إن كان ذلك حقيقة أم مُزاحاً.

توقّفت السيّارة فجأة، ولا ندري إن كنّا وصلنا أم لا، طال وقوف السيّارة دقائق وبدأ الهواء داخل السيّارة ينفد، حتّى خيّل

إلينا أنّنا سنموت خنقاً كالدجاج من شدّة الحرّ، وقلّة الأوكسجين، ممّا دفع بعض المعتقلين إلى المجازفة والبدء بالقرع على جدران الشاحنة.

عندما اشتدّ القرع جاء من يفتح باب الشاحنة وهو يسبّ ويشتم، علمنا فيما بعد أنّنا وصلنا إلى سجن عدرا، ولكنّهم تركونا في الشاحنة ريثما تتمّ إجراءات الاستلام والتسليم، أنزلونا من الشاحنة كما أصعدونا شتائم وسباب وضرب وركل، لم نأبه لكلّ هذا فقد اعتدنا عليه، وخصوصاً أنّنا بدأنا نستنشق الهواء البارد، وكان ذلك صباح يوم الأربعاء ٢٨ كانون الثاني ٢٠١٥. بعد أن تمّت إجراءات الاستلام والتسليم، أوقفونا بصفوف طويلة، وطلبوا منّا خلع ثيابنا كلّها ما عدا ما يستر عورتنا ليحرقوها بحجة أنّها ممتلئة بالقمل والحشرات وهي كذلك.

داخل سجن عدرا

لك أن تتصوّر حالنا وقد بقينا حوالي أربع ساعات في العراء، حفاة عراة في أواخر كانون الثاني، كانت أسناننا تصطكّ من شدّة البرد، بينما كان يحاول بعض المعتقلين التحرّك ضمن

المكان مع ضعف أجسامنا وهزالنا، ووالله لقد رأيت شاباً في أوائل العشرين يرتجف من البرد وقد ازرقّ لونه. وكلّ هذا سهل هيّن أمام ما كان يعانيه الجرحى والمرضى.

بعد الانتهاء من إجراءات التسجيل والدخول من مكتب إلى مكتب، أخذونا إلى الحلّاق - وقد طالت شعور الجميع ولحاهم، فالحلاقة الأولى كانت عند وصولنا السجن العسكري في حمص، وهذه هي الحلاقة الثانية.

طريقة الحلاقة ونوعها تختلف بحسب الدفع، من معه أجرة الحلاقة (٥٠ ليرة) يعامل معاملة لا بأس بها، ومن يدفع عن غيره يعامل بطريقة أفضل، ومن لا يملك أجرة يعامل بفظاظة.

هل هذا أنا؟

عندما جلست على كرسي الحلاقة ونظرت إلى نفسي في المرآة أوّل مرّة منذ شهرين، أصابني الذهول:

- هل هذا أنا؟ والله لو رأيتُني في الطريق ما عرفت نفسي، من الهزال والضعف والنحول.

سألني الحلاق – وهو واحد من حوالي خمسين في الصالون المتعدّد الأقسام– بطريقة لم نعتد عليها فيما سبق: هل تريد أن تحلق شاربك أيضاً؟

– قلت: لا.

وكان قد بدأ بحلق البقيّة الباقية من شعر رأسي ولحيتي، شعرت بآلة الحلاقة الكهربائيّة وهي تمرّ على بشرتي كأنّها شفرة حادة، ربّما لأنّني بعيد عهد بالحلاقة، وربّما لأنّ الألة كانت حادّة زيادة عن المعتاد.

إلى الحمام:

بعد خروجنا من صالون الحلاقة، قالوا لنا:

– من يُرِدْ أن يشتري ثياباً داخليّة أو صابوناً، فهناك محلّ لبيعها.

ثمّ جلسنا وقتاً ننتظر أن يسوقونا إلى الحمّام، حيث دخلنا لاستلام منشفة صغيرة رقيقة، ونعل بلاستيكي (شحّاط) وقطعة صابون صغيرة، ثمّ دخلنا الحمّام أوّل مرّة منذ شهرين، وقالوا لنا: إنّ مدة الاستحمام عشر دقائق، وبعدها تقطع المياه،

كانت حُجر الاستحمام تشبه حُجر الاستحمام في المسبح البلديّ، فيها جرن بلاستيكي صغير. قبل أن أبدأ بالاستحمام ملأت الجرن ووضعته جانباً، أفعل ذلك احتياطاً فربما قطعت الماء فجأة، عندما لامس الماء الساخن جسدي أوّل مرّة أحسست بشيء كوخز الإبر، وما إن بدأت بالاستحمام بعد معاناة مع قطعة الصابون الصغيرة، حتّى انتهت مهلة عشر الدقائق، فحمدت الله تعالى على أن ملأت الجرن، وقد بدأ الصراخ علينا بالخروج.

خرجنا من الحمّام لنجد عربة كبيرة فيها ثياب مخطّطة بالرمادي والأسود، وهناك من يقذف باتجاه المعتقل سراويلَ (بنطالاً) وشبه قميص، من غير نظر إلى مقاسه، ومن سوء حظّي أنّ نصيبي كان يتّسعُ لاثنين معي، ممّا اضطرني لأن أمسكه بيدي طوال الوقت، طبعاً وليس لك حقّ الاعتراض أو التبديل.

صورة

ثمّ انتقلنا إلى طابور التصوير حيث يدخل المعتقلون واحداً واحداً إلى غرفة صغيرة فيها شاب – أظنّه سجيناً مدعوماً –

يحمل آلةَ تصوير (كاميرا) صغيرة وبجواره جهاز حاسوب (كمبيوتر)، يتمّ تصوير المعتقلين ببدلة السجن المخطّطة، وهذه الصورة هي التي ستزيّن البطاقة التي سيحصل عليها السجين، وفي أعلاها بعد الاسم: الجريمة إرهاب.

مساعد البطانيّات

ثمّ وقفنا في طابور استلام (البطانيّات) التي وضعت في عربة تشبه العربة التي وضعت فيها ثياب السجن، وفي (البطانيات) ما هو جديد وما هو مستخدم مسبقاً، وفيها ما هو جيّد وما هو رديء، وهذا يفتح باب رزق للمساعد الفاسد الذي يوزّع البطانيات فمن يدفع (١٠٠) ليرة يستلم بطانيّة جديدة وجيّدة، ومن لا يملك يُرمى له بطانيتان كيفما اتّفق، علماً بأنّ من كان له تجربة سابقة بمثل هذه السجون كان ينصح الباقين بألا يستلموا هذه البطانيّات، لأنّها لن تستخدم في داخل المهاجع إلا للضرورة، لأنّها في الغالب مليئة بالقمل والحشرات المتنوّعة.

باعة متجوّلون داخل السجن

بينما كنّا في طابور الانتظار، استغلّ بعض الباعة المتنقلين الوقت ليروّجوا لما معهم من أنواع الطعام، علمتُ فيما بعد أنّ هؤلاء مستثمرون تتعاقد معهم إدارة السجن، فكنّا كمن يرى الطعام أولّ مرّة في حياته، من كان معه بعض النقود اشترى بها، ومن لم يكن معه استدان إن وجد من يعطيه، والآخرون كانوا يتابعون بأعينهم عمليتي الشراء والأكل.

أكثر من عشرة آلاف معتقل

بعد معاناة الانتظار، حمل كلّ واحد منّا بطانيّتيه، ومشينا في الممرّ الرئيسيّ الطويل خلف المساعد الذي كان يحمل ورقة صغيرة، كلّما وصلنا إلى مدخل جناح، نظر في الورقة وقرأ اسماً أو اثنين أو ثلاثة، فكان نصيبي مع بعض الإخوة الذين نقلوا معنا الجناح رقم ثلاثة، ليستلمنا الحرس الموجودون عند باب الجناح، وقد تمّ توزيعنا مسبقاً على المهاجع داخل الجناح فكان نصيبي المهجع رقم ثلاثة أيضاً.

نسيت عدد الأجنحة بالضبط، ولكن ليست أقل من عشرة أو

أحد عشر غير جناح النساء، في كلّ جناح حوالي سبعة أو ثمانية مهاجع في كلّ مهجع ما بين ١٠٠ إلى ١٢٠معتقلاً، وبحساب بسيط تعلم أنّ عدد المعتقلين في سجن عدرا لا يقلّ عن عشرة آلاف معتقل، جلّهم من الشباب بين العشرين والثلاثين، هم من زينة شباب سوريّة وعمدة مستقبلها.

لم تمت النخوة من رؤوس الرجال

عندما وصلنا إلى المهجع رقم ٣٠٣ الذي تمّ فرزنا إليه – وكنّا اثنين– دفعنا الشرطي الذي رافقنا برفق إلى داخل المهجع، وهو يرفع صوته باسم رئيس المهجع، ثمّ أغلق الباب خلفنا ومضى، وقفنا عند الباب في حال ذهول، ونحن شبه عراة، وكنت ممسكاً سراويلي (بنطالي) بيدي حتّى لا يسقط عن جسمي.

سألنا رئيس المهجع: من أين أنتما؟ وكنت برفقة والد أحد أشهر لاعبي كرة القدم في سوريّة، وأميزهم أخلاقاً وسلوكاً.

– من حمص.

أجبنا سويّة، فنادى وهو ينظر إلى آخر المهجع: يا (فلان) أتاك ضيوف. مدّ رجل في الثلاثينيّات رأسه من خلف أحد الأسّرة آخر المهجع، وهو يقول:

- أهلاً وسهلاً بالشباب.

بينما تحلّق حولنا بعض المساجين يسألوننا، وهم يرافقوننا في الطريق إلى آخر المهجع الذي ازدحم بالمعتقلين، فكنّا لا نكاد نستطيع المرور، وقد استلقى كثير منهم على الأرض بين صفّي الأسرّة، حتّى وصلنا إلى آخر المهجع، حيث ذلك الحمصيّ الذي نادى باسمه رئيس المهجع، وقد أقبل إلينا وهو يقول: حيّ هلاً بالشباب، وعانقنا بحرارة وهو يقول للشباب الذين تجمّعوا حولنا يسألوننا:

- اتركوهم الآن، تسألونهم فيما بعد.

ثمّ قال: أنا متأكّد أنّكم جائعون.

قلنا معاً: نعم.

فقال: يا فلان- نادى شاباً- تعال فاغسل هذه.

وأعطاه بضعة أقراص من البندورة، وقليلاً من أوراق النعنع، ثمّ

أخرج من تحت السرير كيساً فيه أقراص فلافل وضعها في صحن، ثمّ أخرج صحناً فيه حمّص ناعم بطحينة- مسبّحة- وضعهما فوق صحيفة قديمة فرشها على الأرض، ووضع بقربها إبريق الشاي، فكانت هذه هي المرّة الأولى التي نأكل فيها طعاماً يؤكل منذ شهرين، وبينما كنّا نأكل كان يتحدّث محاولاً أن يهوّن الأمر علينا، ولا ينسى أن يرحّب بنا بين الفترة والأخرى، حتّى انتهينا، فطلب منّا أن نستزيد، فشكرناه، ثمّ قال أمّا الآن وقد شبعتم فحدّثونا، أنتم من أيّ حيّ من حمص؟ وكيف وصلتم إلى هنا؟

أجرة السرير ٤٠٠ ليرة أسبوعيّاً

بعد أن تعارفنا مع مضيفنا وحدثْناه عمّا مرّ بنا، أخبرنا أنّه كان يملك محلّاً لبيع الثياب المستعملة في سوق حمص القديم، واعتقل منذ بداية الثورة على خلفيّة خروجه بمظاهرات الثورة، وذكّرنا ببعض الأحداث التي مرّت بها مدينة حمص في أوّل الثورة، وقال متحسّراً:

- صار لي هنا عامان بعد أن مررت بما مررتم به في فروع

الأمن، وأنتظر منذ ذلك الوقت أن أحال إلى محكمة الإرهاب.
كما أخبرنا أنّ أهله يرسلون إليه كلّ شهر مبلغاً من المال ليستطيع أن يسيّر شؤونه هنا، فهو يدفع أجرة السرير الذي ينام عليه ٤٠٠ ليرة أسبوعيّاً لمعتقل آخر سبقه إلى المهجع، وقد علمت فيما بعد أنّ المعتقل الذي لا يرسل له أهله مالاً يؤجّر سريره لمعتقل ليس له سرير، ليحصّل مالاً، وينام هو على الأرض، كما ينام القادمون الجدد، ريثما يأتي دورهم في الحصول على سرير.

ذكرى ليلتين وثلاثة أيام

لن أستطيع أن أصف ما يحصل داخل سجن عدرا، فأنا عمليّاً لم أمكث فيه إلا ليلتين وثلاثة أيام، ولكنّني سأنقل كلّ ما رأته عيناي وسجّلته ذاكرتي خلالها.
استطاع مضيفنا أن يجلب لنا بعض الثياب القديمة كي نلبسها ونحن شبه عراة، وكان الجوّ بارداً، ونحن في أواخر شهر كانون الثاني، ثمّ قال لنا:
– في المساء يأتي الهاتف (التليفون) إلى المهجع وأنا عندي

بطاقة، وتستطيعون الاتصال بأهلكم ليطمئنوا عليكم، ويجلبوا لكم مالاً، تقضون به حوائجكم، وبعد قليل هناك فسحة تنفّس، أعرفكم خلالها على شاب حمصيّ من آل فلان- عائلة معروفة في حمص تعمل في ختان الأولاد- يستثمر هنا في إحدى الساحات محلاً يبيع فيه شطائر (سندويش) الحمّص والفلافل.

تنفّس

لم يمض وقت طويل حتّى حان وقت التنفّس، حيث تفتح أبواب المهاجع ليخرج المعتقلون إلى ساحات واسعة عريضة، لكلّ جناح من أجنحة السجن ساحات خاصّة به، فلا يجتمع المعتقلون من الجناح الثالث مع إخوانهم المعتقلين في الجناح الرابع وهكذا، انتظرنا قليلاً في المهجع حتّى جاء ذاك المعتقل الحمصيّ الذي أخبرنا مضيفنا أنّه سيعرّفنا عليه، وهو يستثمر شبه مطعم في إحدى الساحات، وهو شاب طويل جسيم صبوح الوجه من أسرة معروفة في حيّنا، سلّم علينا سلاماً حارّاً، وجلس معنا قليلاً وأخبرنا عن ظروف اعتقاله وهي لا تختلف

عــن باقــي المعتقلــين، كانــت تهمتــه تقــديم الطعــام والمــاء للمتظاهرين، وقد مضى له هنا أكثر من سنة، جلس الرجل معنا دقائق، ثمّ اعتذر لأنّه يريد الذهاب إلى مطعمه، بعد أنّ طلب منّا أن نقصده إن احتجنا شيئاً.

معارف وجيران وأصدقاء

بعد الخروج من باب المهجع يجد المرء نفسه في ممّر مسقوف طويل عريض، وكأنّه طريق سيّارات، تتوزّع على جوانبه من اليمين والشمال أبواب المهاجع وباحات التنفّس، على الغالب كانت هناك أكثر من ثلاث باحات تنفّس لكلّ جناح، الباحات في منخفض ينزل إليه المرء بدرج صغير حوالي خمس أو ستّ درجات، أرض الباحات نظيفة مرصوفة ببلاط أرصفة، بعضها تحوّل إلى شبه سوق تجد فيه استراحات و مقاهي ومطاعم، يباع فيها كلّ شيء: من الفلافل وحتى اللّحم المشويّ، يجلس فيها المعتقلون الذين يملكون المال على كراسي يأكلون ويشربون الشاي ويتحدّثون، وفيها دكاكين وبقّاليات، يباع فيها كلّ ما يحتاجه المعتقل تقريباً، من فرشاة الأسنان إلى

المحارم والسكّر والشاي والبسكويت والخضار والفواكه.
بينما كنت أسير في الممّر سلّم عليّ أحد المعتقلين بحرارة، وهو يقول: ألست فلاناً؟
قلت: بلى، أتعرفني؟
قال: نعم، كنتُ أحضر خُطبك يوم الجمعة في جامع عثمان، ولكنّك تغيّرت كثيراً، ولولا حفظي نبرة صوتك ما عرفتك.
كان شاباً في العشرينيّات، وكان ممن خرجوا من حمص المحاصرة بتسوية مع الأمن، ولكنّهم اعتقلوه بعد فترة، ومضى له هنا حوالي السنّة، سألني: متى وصلت إلى هنا؟ وكيف وصلت؟
وأخذ بيدي وهو يقول: تعال معي، معنا في القسم هنا فلان وفلان وجعل يذكر أسماء أشخاص أعرفهم، وفي الجناح الثاني فلان زوج ابنة أختك، تعال نسلّم عليه.
قلت له: كيف نكلّمه وهو في جناح آخر؟
قال: نناديه من الباحة، وهو يكلّمنا من النافذة.
وأخذ بيدي إلى إحدى الباحات، وكلّما مرّ بأشخاص يعرفهم

عـرّفهم بي. أنـزلني إلى باحـة لـيس فيهـا محـلّات، إلا مغسـلة الملابـس وكيّهـا، أشـار بيـده إلى أعلى، حيـث يوجـد عـدد مـن النوافذ، قال:

– هناك.. في هذا المهجع فلان.

وجعل ينادي باسمه: فلان فلان.

بقـي هكـذا ينـادي حـوالي ربـع سـاعة، يكلّمـني قليلاً ثم يعـود للنداء. ثمّ قال: غريب في كلّ مرّة كنت أكلّمه من هنا، وكان يسمعني من أولّ مرّة أناديه فيها!

جمعـني بكثـيرين ممّـن أعـرفهم مـن قبـل، وعـرّفني علـى كثـيرين لا أعـرفهم، وقصـص اعتقـالهم واحـدة، كأنّـك تسـمع قصّـة واحـدة مكرّرة، منهم معتقل بلحية طويلة، كان يحمل بيده مصحفاً يقرأ فيه وهـو يمشي في الباحة، كنت أعرفه جيّداً من حيّ الخضر، وكان شاويش مهجع غير المدخّنين، وكان معه طبيب من غوطة دمشـق، أريتـه مـا أصـاب جسـمي مـن الجـرب، فقـال لي: تحتـاج إلى مضـاد حيـويّ ومـرهم. غـداً يسـجّلون أسمـاء مـن يحتـاج إلى مراجعـة الطبيـب فسـجّل اسمـك، وأنا إن كنـت هنـاك أعطيـك

دواء، وكان قد عرض على إدارة السجن أن يساعد الأطباء في المستوصف.

في ساعات التنفّس يخرج المعتقلون إلى الباحات منهم من يمارس الرياضة، ومنهم من يشتري حاجاته، ومنهم من يذهب إلى الاستراحات الموجودة هناك يشرب القهوة ويدخّن، والمعتقلون الجدد أمثالنا يجلسون في الشمس، ويكشفون عن أرجلهم وأيديهم وأجسامهم، يداوون البثور التي تملأ أجسادهم ممّا حملوه من زنازين فروع الأمن والسجون العسكريّة من أمراض جلديّة.

الليلة الأولى في المهجع ٣٠٣

هناك فسحتا تنفّس، إحداهما صباحيّة والأخرى مسائيّة، انتهت فسحة التنفّس الأولى لي في سجن عدرا، وكانت مسائيّة من الساعة الخامسة إلى السابعة على ما أذكر، عدت إلى المهجع رقم ثلاثة، جلسنا على الأرض في الممرّ الذي يفصل بين الأسرّة، حيث يجلس وينام من لا سرير له، كان الممرّ مليئاً بالمعتقلين يتراصّون قرب بعضهم حيث لا شبر أرض لوافد جديد، في المهجع جهازا تليفزيون، أحدهما في أوّل المهجع فوق

الباب، والثاني في آخر المهجع فوق باب المطبخ والحمّامات، بينما جلسنا نتبادل أطراف الحديث مع بعض الشباب، كان صوت التلفزيون يملأ المكان، وكلّ جهاز يصدح ببرنامج يوافق ذوق من يتابعه، علماً بأنّ عدد المتابعين لم يكن يتجاوز أصابع اليد، من بين أكثر من مائة من نزلاء المهجع، ولكن تغيّر الحال عندما أوغلوا في ليلهم، حيث ازداد عدد المتابعين، وبخاصّة من هواة الرياضة، حيث كان أحد الجهازين يعرض مباراة في كرة القدم، أكلنا للمرّة الثانية بعد تلك الوجبة عند مضيفنا الحمصيّ أول وصولنا، كانت الوجبة الثانية رغيف خبز مع قطعة جبنة دهن وبعض المربّى، ويا لها من وجبة لذيذة مع كأس شاي قدّمها لنا جيراننا في موضع جلوسنا.

اتصال هاتفي

بعد حوالي ساعة نادى مناد من أوّل المهجع: وصل الهاتف. أتى إلينا مضيفنا، فقال: أعطوني أرقام هواتفكم حتّى أحجز لكم دوراً، قلت: ليس معنا مالٌ.

قال: لا عليكم، أعطيكم من رصيد بطاقتي.

أعطيته رقم هاتف بيتي في دمشق، بينما لم يستطع رفيقي الذي جاء معي إلى المهجع أن يتذكر رقم هاتف جوال أو عادي لأناس يعرفهم، وكان قد انتقل إلى بيت جديد قبل اعتقاله، وليس في بيته هاتف أرضيّ، قال مضيفنا:

– حضّر ما ستقوله لأهلك، حتّى لا تطيل الكلام. قل لهم مثلاً:

– أنا بخير، وصلت إلى سجن عدرا اليوم، غداً هناك زيارة اجلبوا لي بعض المال والثياب.

ثمّ أردف: هذا يكفي ويفي بالغرض.

كانت دقائق طويلة وأنا أنتظر دوري، ثمّ نادى مضيفنا الذي كان يقف قرب الهاتف عند باب المهجع، تعال: أسرع في الكلام لم يبق من الوقت المخصص للمهجع سوى دقيقتين. لا أدري كيف خرجت الكلمات منّي عندما سمعت صوت زوجتي في الهاتف، ولقد شعرتُ بالمفاجأة التي أصابتها حين سمعت صوتي، كرّرت الكلمات نفسها، التي أشار بها عليّ مضيفنا، وزدت:

-سلامي للأولاد جميعاً.

عدت إلى مكاني وقد اختلطت في نفسي مشاعر فرح وأمل وقلق وترقّب وحزن وخوف، لا يمكن للمرء أن يحدّد في مثل هذه اللحظات نوع ما يعتمل في داخله من مشاعر وأحاسيس، ومن لم يجرّب لا يدرك ذلك مهمّا طال الشرح.

كانت رائحة البطاطا المقليّة التي تخرج من المطبخ تملأ أنفي عندما كنت أحاول النوم بعد ذلك اليوم العسير، كان بعض المعتقلين يشتركون معاً لتحضير وجبة عشاء من البطاطا المقليّة، وكانت رائحة شهيّة افتقدها أنفي منذ مدّة طويلة، بينما كان التلفزيون يعرض مسلسلاً أجنبيّاً مدبلجاً، نظرت إلى رفيقي فوجدت النوم قد جافاه أيضاً، وقد ازداد غمّه لأنّه لم يجد طريقة يخبر بها أهله أنّه وصل إلى سجن عدرا.

عدنا إلى الحديث ثانية، حدّثني رفيقي عن طفولته وعن أولاده، وعن ولده نجم كرة القدم الخلوق، بقينا نتحدّث حتّى تسلل النعاس إلى أعيننا، ساعده على ذلك أنّ التلفاز وضع على قناة راديو ولم نعد نسمع إلا أغاني، كما أنّ الأضواء أطفئت.

غفوت حوالي ثلاث ساعات، ثمّ استيقظت وقد أحسست أنّي شبعت نوماً، قمت توضأت وجلست أصلّي في مساحة لا تتجاوز القدمين، فيما لاحظت أنّ كثيراً من المعتقلين ما زالوا في أسرّتهم مستيقظين، هذا يقرأ في مصحفه، وهذا يكتب في دفتر مذكراته، استعرت من أحدهم مصحفاً، وكنت لم ألمس مصحفاً منذ أكثر من شهرين، قلت في نفسي أعود لمراجعة حفظي، وممّا أحزنني أنّني لم أكن أستطيع تذكّر إلا الأجزاء التي حفظتها صغيراً، أمّا الأجزاء التي حفظتها في الكبر فلم أستطع تذكّرها، ربّما كان ذلك من حال الضعف والهزال الذي أصابني من قلّة النّوم والطعام، بالإضافة إلى الكرب و الشدّة، لكنّني أذكر جيداً أنّني وصلت في مراجعتي قبل الاعتقال إلى سورة الرّوم، حاولت أن أقرأ، لم أستطع رؤية الكلمات، مع أنّ المصحف من الحجم المتوسّط، الضوء الخافت جداً، وفقدان نظّارتي التي كسرت في سجن (القابون) أبيا عليّ ذلك.

جلست أسبّح واستغفر قليلاً، ثمّ توجّهت بكلامي إلى شاب في العشرينات يجلس فوق سريره، قرب موضع جلوسي على

الأرض، وقد لاحظت أنّه ينظر إليّ بطرف عينه، بينما كان يكتب في دفتر مذكّراته. سألته: ماذا تكتب؟

قال: ما يخطر ببالي.

قلت: وما يخطر ببالك؟

قال: قريتنا وحيّنا، وأبي وأمّي وإخوتي وأصدقائي وجيراننا، وكلّ شيء.

قلت: هل تفتقدهم؟

قال: لا، إنّهم يعيشون هاهنا. وأشار إلى قلبه. نعم عيني تفتقد رؤيتهم، وأذني تفتقد أصواتهم.

قلت له: إنّ لي تجربة في كتابة الشعر، إن احتجت إلى مساعدة، فأنا جاهز.

قال: شكراً.

وهو يغلق دفتره ويدنيه من حِجره، أدركت أنّه لا يحبّ أن أطلع على شيء ممّا يكتبه، شكرته على سعة صدره، وعذرته في قرارة نفسي، فهو يتحدّث مع شخص لا يعرفه إلا من دقائق.

يوم ثان في سجن عدرا

استيقظت مبكّراً بعد أن بدأت الحركة تدبّ في المهجع، وخصوصاً أنّ من يريد الوصول إلى المطبخ والحمّامات، كان لابدّ له من وضع أقدامه بين أجسادنا التي تكدّست في الممرّ، حيث ينام المعتقلون فيه متعاكسين – رؤوس وأرجل، فأرجل هذا عند رأس هذا، والعكس كذلك– كان يوم الخميس ٢٠١٥/١/٢٩ خرجنا إلى الاستراحة الأولى، وأنا أترقّب أن يأتيَ نبأ قدوم زيارة لي في أيّة لحظة، تجوّلت في الساحات والمهاجع أبحث عن أناس أعرفهم، التقيت بكثير منهم، كان أغلب من في سجن عدرا من الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والأربعين، من جميع مناطق سوريّة، مع زيادة في نسبة القادمين من حمص وريفها، ومن ريف دمشق، مررت في تجوالي بأحد رفاق الزنزانة في سجن حمص البولونيّ، وهو رجل تجاوز الستّين سميناً بديناً، يجلس في الشمس وقد دهن جسده الذي امتلأ بالبثور بالدواء، سألته عن حاله في المهجع الذي فرز إليه، فأخبرني أنّه ينام في الممرّ أيضاً، وقد أعطاه رفاق

المهجع بعض الثياب. وقد امتلأت عيناه بالدموع، وهو يقول: يا ربّنا لك الحمد، أين كنّا وإلى أين صرنا.

زيارة

مضت الاستراحة سريعاً، عدت إلى المهجع وما زال فكري مشغولاً بالزيارة، أحاول أن أسلّي نفسي بالحديث مع هذا وذاك، حتّى مضت أكثر من ساعة، جاء أحد حرّاس السجن وأعطى شاويش المهجع ورقة، فنادى باسمي: أن جهّزْ نفسك عندك زيارة.

لم يضع مضيفنا الوقت وأخذني جانباً وهو يملي عليّ ما ينبغي أن أفعله:

-اصرف مائتي ليرة خمسينات، وكلّما مررت على نقطة حرس أعطهم خمسين ليرة، حتّى لا يعرقلوا لك الزيارة، ويؤخّروا وصولك إلى الصالة.

صحيح أنّهم لا يسمحون لك أن تُدخل أكثر من عشرة آلاف ليرة، ولكن حاول أن تدخل أكبر قدر ممكن من المال.

اخفِ النقود بعد استلامها مباشرة، ولا تدع أحداً من الحراس

يراها.

خذ وقتك كاملاً مع أسرتك، حتّى يطلب الحراس منك المغادرة.

لم ينته مضيفنا من تعليماته ونصائحه حتّى نادى الحرس باسمي للانطلاق للزيارة، كان الوقت ظهراً، تبعته وأنا أحدّث نفسي: كيف سيرونني بهذه الثياب؟! أقصد ثياب السجن المخطّطة التي تُلْبِس اثنين مثلي.

كم أنا مشتاق لأسرتي؟! ولكن ينبغي أن أبدو أمامهم قويّاً صابراً، ينبغي ألا يروا دموعي التي صارت سخيّة في الأيام الأخيرة، فأدنى موقف عاطفي كان يثيرني، ينبغي أن أصبّر نفسي وأكون جَلْداً. أحدّث نفسي بهذا وأنا اتبع تعليمات مضيفنا، وكلّما مررت على نقطة حرس أعطيتهم خمسين ليرة.

كنت أحاول تخيّل مكان الزيارة وقد احتفظت في ذاكرتي ببعض التفاصيل التي كنّا نراها في التلفزيون عندما كنّا صغاراً عن الشباك الحديديّة التي تفصل بين السجين وزائريه، وعن عناصر الأمن الذين يقفون قريباً يراقبون ما يجري.

عندما وصلت وجدت المكان لا يختلف كثيراً عمّا تخيّلته، وأوّل وهلة بدأتُ بهدوء أبحث في الوجوه البائسة التي تقف خلف القضبان، وجوه يختلط في ملامحها الفرح بالحزن والألم والتعب والقهر، نساء شابّات وعجائز وأطفال، وإن كنت توقّعت أن يكون العدد أكبر ممّا رأيت.

وقعت عيني على زوجتي وابنتي وهما تلوّحان لي بأيديهما، نحن هنا، حاولت أن أجد مكاناً هادئاً بعيداً قليلاً عن الآخرين حتّى نستطيع سماع بعضنا، لا يمكن للمرء مهما أوتي من قدرة على الكتابة أن يصف تلك اللحظات، كانت العيون هي التي تتكلّم، والألسن تقول غير ما في العيون، يجري الكلام على الألسن بما اعتاد عليه النّاس من كلام في مثل هذه الحالات:

– كيف حالك؟ كيف حالكم؟ الحمد لله نحن بخير.

ولكنّ العيون كانت تقول: يا الله ماذا فعلوا بك؟!

قرأت ذلك في أعينهم، وفي لحظة واحدة ذهب كلّ ما كنت أعدّه من قوّة وجلادة أدراج الرياح، وجرت الدموع من العيون كأنّما كأس ماء وانسكب، وخلال دقائق لم تكن هناك أحرف

ولا كلمات، وإنّما كان نشيج ودموع، حتّى صديقي الذي أوصل أسرتي إلى هنا، عندما ذهب نظري للحظة إلى المكان الذي يقف فيه جانباً، وجدت عينيه قد فاضتا بالدموع.

أخبروني عمّا حصل معهم منذ اعتقالي إلى هذا اليوم، حاولت أن أطمئنهم على حالي، أخبرتهم أنّ الأمور هنا جيّدة.

لا أعرف كيف مضى الوقت، أخذت الثياب ومبلغ عشرة آلاف ليرة، وسألتُ صديقي الذي أوصلهم إن كان يحمل معه مالاً فأخذت منه عشرة آلاف أخرى، بينما كان عنصر الأمن يراقب ذلك، ودّعتهم على أمل أن يأتوا في موعد الزيارة القادم – لم يخطر في بالي وقتها أنّني سأخرج من هنا اليوم التالي– وبينما كانوا يراقبونني وأنا عائد إلى داخل السجن، كان عنصر الأمن يساومني على المبلغ الذي سيأخذه مقابل سماحه لي بإدخال عشرة آلاف أخرى، وبعد جهد جهيد وأخذ وردّ قبل بخمسمئة ليرة فقط.

عدت إلى المهجع وأنا أحمل كيس ثيابي، وقد أخفيت العشرين ألفاً داخل الثياب، وكلما مررت بنقطة حراسة أمنيّة سألوني:

- ماذا جلب لك أهلك؟

فأقول: ثياباً.

فيقولون: فقط؟!

فأقول: نعم.

وأتابع سيري، وأنا أسمع همهمتهم، ولا أفهم ما يقولون.

دخلت إلى المهجع فاستقبلني مضيفنا مع بعض الإخوة استقبال الفاتحين، ولقد هممت أن أجيب على تساؤلات بعضهم، فأخبرهم بمقدار المال الذي جلبه لي أهلي، لولا أن أشار إليّ مضيفنا بعينه، فاستدركت قائلاً: الحمد لله، الخير كثير.

بدّلت ثيابي ولبست الثياب التي أحضرها لي أهلي، وتخلّصت من تلك البذلة المخطّطة التي تجعلني أفقد خدمات إحدى يديّ التي تنشغل بشدّ السراويل (البنطال) طوال الوقت.

قسمت المال بيني وبين صديقي الذي فرز معي إلى المهجع، وأنا أعلم أنّه لا يملك شيئاً أبداً، ولم يستطع الاتصال بأهله، فأعطيته ١٠ آلاف ليرة، ولم يقبل أخذها إلا ديناً يردّه لي لاحقاً. – وقدّ ردّها بعد ذلك–واقترح علينا مضيفنا أن يُبقي

المال معه أمانة، وأن نبقي معنا مبلغاً صغيراً فقط خشية السرقة.

البُشرى

بعد عودتنا من الفسحة المسائيّة، وقد اشترينا بعض الحاجات الضروريّة، وقد بدأ حالي يتغيّر، وشعرت بشيء من الطمأنينة والرّاحة بعد لقاء أهلي، وبينما كنت أتجاذب أطراف الحديث مساءً مع بعض المعتقلين من رفاق المهجع من الشباب، كانت الساعة بعد الثامنة، وكان جهازا التليفزيون يصدحان بصوت مرتفع، ولا نكاد نسمع بعضنا، ارتفع صوت أحد الشباب ممن كانوا يتابعون ما يقدّم في التليفزيون، وهو قادم نحونا:

– أليس اسمك فلاناً؟

قلت: بلى.

قال: الآن قرأت اسمك في المتروكين غداً على شريط أخبار السجن.

لم أستوعب الأمر أوّل وهلة، قال:

– التفت خلفك، أقرأ بنفسك، الآن يعيدون عرض الشريط مرّات أخرى. التفت إلى الخلف أتابع التلفاز، وتوقّف جميع من

حولي عن الحديث، توجّهت الأنظار إلى الشريط الذي يظهر على الشاشة، وبدأت دقّات قلبي تزداد، ويرتفع صوتها، وأنا أتابع الشريط، عاد الشريط مرّة أخرى، قال الشاب:

– الآن.

وجعلت الأسماء تتوالى على الشريط، مرّ أكثرُ من عشرين اسماً، مرّ اسم صديقي، ولم أعد أشعر بمن حولي، وللحظة توقّف عقلي عن التفكير، ولم يعد يعنيني من الحياة كلّها إلا هذا الشريط، حتّى رأيت اسمي بعيني، وقتها فقط سمعت جلبة فرحة الإخوة لصديقي ومعانقتهم له عندما ظهر اسمه، وأقبل عليّ الشباب يعانقونني ويهنئونني، وأنا لم أصدّق بعد، وانتظرت عودة الشريط مرّة أخرى ورأيت اسمي، وربّما تابعت الشريط يومها عشر مرات أو أكثر.

مستقبل الأمّة في زنازين السجون

بعد أن هدأت شعلة مشاعر فرحتي، صدمني إحساسي بأنّني بالغت في فرحي وحولي إخوة ما زالوا يعانون جحيم القيود والاعتقال، وجعلت أقول لنفسي: كان ينبغي عليك أن

تستحي، وأن تخفي مظاهر فرحتك العارمة هذه في نفسك، ألا ترين هؤلاء الشباب في زهرة أعمارهم ههنا باقون، وهم مثلك مظلومون؟!

فلم أدر إلا ودموعي تجري من عيوني، ونشيجي يعلو، ويقطع أصوات التهاني والتبريكات، التفّ حولي الشباب وهم يواسونني، ويقولون:

- الساعة الآن ساعة فرح، ما الذي حصل يا حاج؟

قلت وصوتي يتقطع مع النشيج:

- لا أنكر أنّني فرح، ولكن ما يبكيني أنتم، حالكم، أنا الآن قد جاوزت الخمسين من عمري، وقد أعطاني الله من الحياة ما اشتهيت، بل قد أعطاني أكثر ممّا حلمت، فإن بقيت هنا فجُرحي قريب، ولكن أنتم ماذا صنعتم حتّى تضيّعوا زهرة حياتكم هنا في هذا الجحيم؟! ما رأيتم بعد من الحياة شيئاً، ماذا فعلتم حتّى تقتل أحلامكم وأمانيكم هنا؟! أنتم مستقبلنا، أنتم أملنا.

قام شاب منهم يقول بلهجة الواثق بالله الراضي بقدره:

– يا حاج الذي يسّر لك سييسّر لنا إن شاء الله، قريباً سنلتقي خارجاً.

سكتُّ لحظة بينما كنت أقول في نفسي:

– يا الله! ماذا فعل هؤلاء لهذا السفاح حتّى يحطّم مستقبلهم، مستقبل الأمّة، ويحبسهم هنا؟! أمن أجل عرش ورثه من أبيه الذي اغتصبه اغتصاباً؟! لا والله لا يمكن لنا أن نرضى بذلك بعد الآن، وإذا كنّا قد خرجنا بثورتنا وعندنا بعض التردّد في زوال هذا الطاغية، وإذا كنّا قد دخلنا معتقلاته من غير ذنب، فالآن دوننا وإسقاطه الموت.

والّلي آسيتو في ليلي اتنسى ويّا الصباح

مضت تلك الدقائق رهيبة، وصارت المسألة بالنسبة إليّ مسألة ساعات ستمضي وتعود لي حريّتي المسلوبة، قال مضيفنا:

– غداً في الساعة الثامنة يأخذونكم لتقوموا بإجراءات الإفراج عنكم، هي نفس إجراءات الدخول ولكن بطريقة معكوسة.

اقترح عليّ صديقي الذي أفرج عنه معي أن نأخذ قليلاً من المال بما يكفينا أجرة سيّارة نصل بها إلى بيوتنا، ونترك الباقي

لمضيفنا مع الحاجيات التي جاءتني، وهو يتولّى قسمتها بين الشباب الذين حوله ممّن ليس لهم أحد يرسل لهم شيئاً.

حاولت أن أنام مع أنّني على يقين أنّني لن أستطيع، تابعت ما كان يعرض في جهاز التلفزيون، رياضة وأخبار ومسلسلات، أراها بعيني، ولكنّها لاتصل إلى قلبي المشغول بيوم غد، كيف ستتمّ إجراءات الإفراج؟ هل حقّاً سأعود إلى بيتي، إلى أسرتي، إلى حرّيّتي؟ كم أنا مشتاق إلى حريتي، إلى إنسانيّتي؟ ماذا سأفعل بعد خروجي؟ هل أسافر؟ هل أعود إلى حمص؟ كم مقدار الرشوة التي دفعها صديقي حتّى أخرجني؟ كيف سأعيد له المال الذي دفعه؟ عشرات الأسئلة مرّت في خاطري، ومرّت معها ساعات، حتّى نام أغلب من في المهجع، ومنهم صديقي الذي أطلق سراحه معي، قلت في نفسي متعجّباً:

– كيف يستطيع النوم، وغداً سيخرج من هنا؟

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة، حينما تمّ وضع جهازي التلفزيون على محطّة تبثّ صوتاً من غير صورة، كانت الأغنية المختارة في تلك الليلة أغنية أمّ كلثوم (لسّه فاكر) يا الله

منذ زمن طويل لم أسمع أغاني، وخصوصاً أغاني أم كلثوم، وقد حفظت كثيراً منها أثناء طفولتي من كثرة ما كان يتكرّر علينا سماعها، الآن أنا مضطر لسماعها، بل لقد حاولت متابعة ما تقول، وحينما وصلت إلى المقطع الذي تقول فيه:

والّلي آسيتو في ليلي اتنسى ويّا الصباح

صرت أكرّر البيت الأخير من المقطع، وكأنّما كان يجسّد حالي تماماً (والّلي آسيتو في ليلي اتنسى ويّا الصباح) بقيت أغنية أم كلثوم قرابة الساعتين، ولم يقترب النوم من عينيّ حتّى انتهت، وأنا أقول ستنتهي معاناتي عند الصباح إن شاء الله.

الدعاء يا حاج

في صباح يوم الجمعة ٢٠١٥/١/٣٠مـ ودّعنا الإخوة في المهجع، وما أصعبها من لحظات لا يعرفها إلا من عاشها، يمتزج فيها إحساس المرء بالفرح بقرب استعادته لحريّته، مع الحزن والألم على حال الباقين الذين لا يعرفون ما مصيرهم، وخصوصاً أنّه يعرف أنّهم يقبعون هنا بلا ذنب أو جريمة، في تلك المواقف تختصر الدموع المشهد القاسي الرهيب، فأنت لا تسمع من

أفواههم كلمات الحسرة والتوجع، عزّة نفوسهم ورجولتهم تمنعهم من ذلك، ولكنّك تقرؤها بأعينهم، فتجري الدموع من غير استئذان، آخر وصاياهم:

– الدعاء يا حاج، الدعاء يا حاج، وأخبر كلّ من تراه من أهلنا وأحبابنا وإخواننا أنّنا بخير، ونحتاج إلى دعواتهم.

في طريق العودة إلى الحريّة

أخرجوا كلّ من صدر قرارُ تركه أو الإفراج عنه من المهاجع، وجمعونا في الممرّ الرئيس الطويل، كنّا حوالي ثلاثين معتقلاً، كثير منهم لم يستلموا بطاقة السجن بعد، وأنا واحد من هؤلاء، وقفنا في طابور طويل أمام الذاتيّة ننتظر أن نستلمها، يا له من طابور ونحن نحمل البطانيّات التي استلمناها من يومين لنسلمها الآن، جاء دوري بعد حوالي النصف ساعة، يا للسخرية سنستلم بطاقة السجن الآن ثمّ نسلّمها بعد قليل، كانت البطاقة أشبه بما كنّا نصنعه ونحن صغار من بطاقات نلعب بها، وضعوا في طرفها الأيسر صورة مخيفة للمعتقل بلباس السجن المخطّط، ومن ثَمّ زيّنوها في الأسفل بعبارة: (الجريمة: إرهاب). كم تمنّيت

لو أستطيع تصويرها، لأريها لأولادي وأصدقائي.

مضت إجراءات الخروج مشابهة لإجراءات الدخول، استغرقت تفاصيلها حوالي خمس ساعات لم يتغيّر فيها أيّ شيء، إذلال وقهر وإساءة عند كلّ مرحلة من الموظفين والإداريّين، ناهيك عن الحرس الذي يرافقنا من مكان إلى مكان، في نهاية هذه الإجراءات ختموا على أيدي المعتقلين ثلاثة أختام، قلت في نفسي أليس عندهم ورقة يختمونها ويعطونها لنا بدل أن يختموا على أيدينا كالأغنام، ثمّ علمت بعد ذلك أنّ هذا تقليد متّبع في مثل حالنا.

ما خفّف عليّ من قساوة هذه الإجراءات وطول الانتظار أنّني التقيت بأحد معارفي القدامى، وقد أُطلق سراحه بعد مكوثه هنا ستّة أشهر، فكنّا نتجاذب أطراف الحديث ونتذكر الأيّام الخوالي، ونتحدّث عن حال معارفنا المشتركين.

أقسى مرحلة في تلك الإجراءات كانت قبل آخر مرحلة، حيث يضرب اسم المعتقل على الكمبيوتر ليعرف هل هو مطلوب لفرع أمن آخر غير الفرع الذي حوّله إلى هنا، كان هناك سبعة

أو ثمانية من الثلاثين معتقلاً مطلوبين إلى جهات أمنيّة أخرى، ولك أيّها القارئ أن تقدّر، أو تتخيّل حال هؤلاء، فهم بالإضافة إلى أنّهم فقدوا الأمل من الحريّة، يعرفون ماذا ينتظرهم من آلام في الفرع الجديد الذي سيرسلون إليه، بالنسبة إليهم هذا السجن أرحم بألف مرة ممّا هم قادمون عليه، ولقد رأيت شاباً كاد أن ينهار عندما علم بأنّه مطلوب لأحد الأفرع، نسيت اسم الفرع، ولكن أذكر أنّه في كفر سوسة، ولقد أعطاني رقم تليفون أخيه، وطلب منّي أن أتّصل به أوّل خروجي حتّى يستطيع تدارك الأمر بدفع مال أو أيّ شيء.

نكتة سخيفة

أجمل نكتة كانت في آخر مرحلة حيث جمعنا مدير السجن قرب مكتبه وألقى فينا كلمة ذكّرنا فيها بسعة صدر الوطن الذي يغفر لأولاده ويسامحهم مع أنّهم آذوه وأضرّوا به، كما ذكّرنا بكرم سيده الرئيس بشار وعفوه ورحمته وشهامته، حيث يصدر المرسوم تلو المرسوم بالعفو عن الشاردين عن حضن الوطن، ثمّ ختم كلمته بسؤالنا:

– هل آذاكم أحد؟ هل ضربكم أحد؟ هل أخذ منكم مالاً أحد؟ هزّ الجميع رؤوسهم بالنفي في وقت واحد في مشهد تمثيليّ، فقد كان أحد المعتقلين نبّه الجميع في غفلة عن عيون الحرس: أن إذا سُئلتم عن ذلك فقولوا لا. وإلا فسيعيدونكم إلى الداخل بحجّة التحقيق في ذلك، ولن تخرجوا من هنا.

إجراءات الخروج من بوابة السجن

بعد انتهاء مدير السجن من كلمته التي يعلم أنّه يكذب فيها، ويعلم أنّ من يسمعونه يعلمون أنّه يكذب. أتت سيارة (ميكروباص) حملتنا إلى بوابة السجن، حيث طلب منّا أن نجلس على الأرض خارج مكتب الاستعلامات في جو شديد البرودة، وكنت – كما ذكرت سابقاً– قد أعطيت جميع الثياب التي أتت بها زوجتي إلى مضيفنا في المهجع لينجد بها القادمين الجدد، سوى بدلة الرياضة التي ألبسها وهذا النعل (الشحّاط) البلاستيكي الذي أعطونا إيّاه في السجن، مكثنا أكثر من ساعة، من كان معه خمسون ليرة يدفعها للشرطي يدخل قبل الجميع، يوقّع على دفتر لا أدري ما هو، ثمّ يخرج من بوابة

السجن إلى الخارج، وهذا طبيعي في نظام مجرم يستشري فيه الفساد من أصغر مؤسّسة إلى أكبرها، كنت أملك ما أدفعه وزيادة، ولكن لا أدري ما الذي جعلني أصبر، وأمتنع عن الدفع مع أنّ رجليّ كادتا تتجمّدان من البرد.

في الطريق إلى البيت

خرجتُ من بوابة السجن مع آخر معتقَلين لنجد المعتقَلِين الذين سبقونا واقفين خارجاً ينتظرون سيّارة تنقلهم، كان بعض المعتقلين قد أخبر أهله ليلة أمس عن طريق الهاتف، فجاؤوا بسيّاراتهم ينتظرون عند الباب. أمّا الباقون فكانوا ينتظرون في هذا المكان المقفر قدوم سيّارة تنقلهم، كان هناك سيّارة تكسي تقف قريباً، ذهبت إليه، قلت:

– كم تريد حتّى توصلني إلى حيّ المزّة؟

قال: ثلاثة آلاف.

يا لطيف ثلاثة آلاف! وأجرة الراكب في سيّارة الخدمة (سرفيس) التي تصل إلى محطة نقل الركاب (الكراجات) خمسون ليرة فقط!

لم ننتظر طويلاً حتّى أتت سيارتا خدمة اتّفق بعض المعتقلين مع واحدة كي توصلهم إلى حمص، وركب الباقي في الثانية ليصلوا إلى محطّة الانطلاق وكنت منهم، كلّما مررنا بحاجز نريهم الأختام التي على أيدينا فيسخرون منّا، ويضحكون ويسمحون لنا بالمرور، حتّى وصلنا إلى محطة النقل (الكراج).

أنا إرهابي

عندما وصلنا إلى محطة النقل (كراج العباسيين) كانت حركة السير قليلة، فاليوم جمعة، وهذا وقت صلاة الجمعة، استأجرت تكسي إلى البيت، كان السائق شاباً، لاحظت أنّه ينظر إليّ باستغراب، وكأنّما يقول في نفسه، ما هذا الرجل الهزيل الذي يسير في الشارع (ببجامة رياضة) ويلبس (شحّاط بلاستيك) من غير جوارب في هذا البرد.

قلت له: لا تخف معي السبعمائة ليرة التي اتفقنا عليها، كلّ ما في الأمر أنّني إرهابيّ، واليوم أطلقوا سراحي، وإذا لم تصدّق انظرْ وبسطت كفَّيّ حيث الأختام، تفاجأ الرجل بما أقول، ثمّ أردفتُ:

وجدوا أنّي خطر على الأمن، فاعتقلوني وجعلوني أبدو كما تراني، وها هي حرّيتي تعود إليّ من جديد. قلت هذا بينما كان الرجل ينظر إليّ بذهول، لا أدري كيف قلتُ هذا! ولا لمَ قلتُ هذا! كلّ ما أعرفه أنّني كنت أشعر بنشوة فرح غامرة، أنا على يقين أنّ السائق لم يدرِ متى يوصلني إلى وجهتي ويتخلّص من هذا الخطر، أنزلني وأخذ المال ثمّ انصرف مسرعاً، وأنا أظنّ أنّه كان يقول في نفسه هذا رجل مجنون.

وقفت أنظر حولي لم يتغيّر في الحيّ شيء، كلّ شيء مكانه كما تركته، وكأنّما الزمن توقّف، وكأنّما بالأمس كنت هنا، وها قد عدت، عدت لأسرتي وعدت لثورتي من أجل تحرير بلدي من سجنه الكبير، من أجل حريّة من تركتهم خلفي من المظلومين في السجون والمعتقلات.

شاركني المصعد شاب صغير من أولاد جيراننا، كان ينظر إليّ باستغراب، وهو يراني على هذه الحال، وبهذه الثياب وفي وقت صلاة الجمعة، ولا أدري أعرفني أم لم يعرفني؟؟ ولكنّني بادرته بالسلام، وسألته عن حاله وحال أهله، وقلت محاولاً إزالة

استغرابه:

- الآن عدت من السفر.

وصلت إلى باب بيتنا، طرقت الباب، فتح الباب، وعدتُ إلى بيتي.

بقيت بعدها أشهراً وأنا أراجع محكمة الإرهاب لأحصل على حاجاتي التي سلبوني إيّاها عند اعتقالي، حصلت على أوراقي الشخصيّة، وجوّالي الرخيص الثمن، بينما سرقوا ساعتي الغالية الثمن، ووضعوا لي بدلاً عنها ساعة رخيصة الثمن، ولم يعيدوا لي مبلغ السبع والعشرين ألف ليرة سوريّة الذي أخذوه منّي، عشت هذه الأيام وأنا في خوف دائم من أن يعتقلوني مرّة ثانية، حتّى تهيأت لي فرصة الخروج إلى لبنان، ومن ثمّ إلى تركيّا، وأنا الآن أعيش في تركيّا، لاقيت في طريق الوصول إلى لبنان مصاعب كثيرة، ولكنّها لا شيء أمام ما رأيته في أقبية الشياطين.

الحمد لله الذي أنعم عليّ بالخلاص من تلك الأقبية المتوحّشة بعد ٦٣ يوماً، وتجربة مريرة بدأت من عصر يوم

السبت٢٠١٤/١١/٢٩ واستمرت حتّى ظهر ٢٠١٥/١/٣٠ ذقت فيها بعض بطش وجبروت أولئك المجرمين، وما أصابني لا يعادل عُشر معشار ما أصاب أكثر المعتقلين، أسأل الله تعالى أن يفرّج عن جميع المعتقلين ويفكّ أسرهم كما فرّج عنّي.

من أعظم ما تركته هذه التجربة المريرة في نفسي أنّني صرتُ كلّما ألمّ بي أمر شديد، أو حلّ بي كرب، أو أصابني مكروه، أو تعثّرت بي ظروف الحياة، أو جرت على غير ما أشتهي، ولعب الشيطان بي، وكاد أن يغمّني، أقول في نفسي:

– ويحكَ والله إنّ هذا الذي يمرّ بك لا يساوي خمس دقائق في الزنزانة المنفردة، فأحمد الله تعالى، ولا تقلق، وهل يقلق من له ربّ رحيم؟!

انتهى